أحَادِيثُ حُجِّيَّة السُّنَّةِ

دراسة بلاغية تطبيقية

د/ رضا السعيد فايد

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود

redazayed.419@azhar.edu.eg

عنوان البحث أحَادِيثُ حُجِّيَّة السُّنَّةِ دراسة بلاغية تطبيقية

اسم الباحث د/ رضا السعيد فايد
الإيميل redazayed.419@azhar.edu.eg

الكلمات المفتاحية أحاديث – السنة – حجية – بلاغية

التوصيف الوظيفي الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود

ملخص البحث

هذا البحث يتناول أحاديث نبوية تثبت حجية السنة النبوية بينت من خلال تحليلها تحليلا بيانيا روعة الأداء النبوي وبلاغته العالية التي هي أعلى مراتب البلاغة البشرية وكيف توافر لهذه البلاغة كل مقومات الجمال من صفاء للكلمة ودقة في التراكيب و روعة في النظم

فجمع كلامه ﷺ بين الإقناع والإمتاع فكان أسلوبه ﷺ خير دليل على ثبوت الحجية لسنته لأنها بلاغة من أدبه ربه فأحسن تأديبه

Research Summary
Hadiths of the Authentic Hajj
An applied rhetoric study

Dr. Reda Al-Saeed Fayed
Assistant Professor, Faculty of Arabic Language, Itai Baroud
redazayed.419@azhar.edu.eg

This research deals with prophetic hadiths that prove the authenticity of the Prophet's Sunnah. Through its analysis، it demonstrated the splendor of the prophetic performance and its high rhetoric، which is the highest level of human rhetoric.

His words، may God's prayers and peace be upon him، combined persuasion and pleasure. His method، may God bless him and grant him peace، was the best proof of the authenticity of his Sunnah، because it is eloquence from his Lord's etiquette، and he was well disciplined

Keywords:
Hadiths - Sunnah - Authentic - Rhetoric

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾

النساء: ٦٥

صدق الله العظيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله حمدا يبلغ رضاه، وأشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسوله ومجتباه ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين المرضيين اللهم آمين .

وبعد :

قديما وحديثا ومعاصرا أفاض العلماء في وصف بلاغة الرسول – ﷺ – وكيف أنها جمال من جمال، وعطاء من بحر الفيوضات، ووحي من وحي الإله، ولم تك أحاديث المصطفى – ﷺ – كلاما جميلا رائعا منمقا، وقف العلماء على بلاغته، ووجوه روعته فحسب، بل هي مع كل ذلك لسان الصدق الذي انتشل أمة ضائعة تعيش في ظلمات الجهل والفقر، يأكل القوي فيها الضعيف ، وتقطع أرحامها وتئد بناتها، وتسفك دماءها، وتفسد في الأرض، انتشل هذا اللسان هذه الأمة ، فكانت أرقى الأمم وأقواها، تخطب الدنيا كلها ودها، وترجو رفدها، وتخشى غضبتها، والأمة اليوم في أمس الحاجة إلى سنة الرسول – ﷺ – حتى تشفى من أمراضها وتعود فتية قوية، تأخذ موقعها الأشم بين الأمم وتقود البشرية كلها إلى مراتب الكمال؛ ولذلك فبيان النبي – ﷺ – يحتاج إلى الاقتراب منه والتأمل فيه؛ لأن هذا البيان الذي خاطب الأرواح، وناجى النفوس وأبهر العقول، نسيج وحده في قوة التصوير، وسخاء المعاني، وبراعة النظم، ودقة التعبير، مع إيجاز في اللفظ .

وبيان النبي– ﷺ – الذي صدر من مشكاة الوحي؛ لا يكتفى فيه بالوصف المجمل بل لابد فيه من تلمس مكامن الإجادة، وأسباب الريادة وألوان الفصاحة، وتزاحم نكات البلاغة، فبلاغة الرسول لا يليق بها الوصف المجمل، والقول المرسل، بل تحتاج هذه البلاغة العالية إلى تفصيل القول والتدسس في خبايا النظم أو كما قال عبدالقاهر :" وتضعَ اليدَ على الخصائصِ التي تَعْرِضُ في نَظْم الكَلِم وتَعُدُّها واحدةً واحدة، وتُسمّيها شيئاً شيئاً، وتكونُ معرفتك معرفة

الصنع الحاذق الذي يعلم علم كل خيط من الإ بريسم الذي في الدِّيباج، وكلَّ قطعةٍ منَ القِطَع المنجورة في الباب المقطع، وكل آجرة منَ الآجرِّ الذي في البناء البديع " [1] وهذا التناول لسنة النبي صلى الله عليه يحتاج إلى صبر وتأمل وحق لها هذا؛ لأن السنة من الدين بل هي الدين وحاجة الأمة إليها كحاجة الروح إلى الجسد .

وقد ابتلينا بشرذمة قليلين وماهم للإسلام بغائظين، يعادون السنة فيحطمون الصحابة، وينالون من البخاري، بل ينكرون السنة بالكلية مدعين زورا وبهتانا باكتفائهم بالقرآن الكريم، ولو آمنوا حقا به لاتبعوا السنة المبينة، والمفسرة، والمفصلة للقرآن الكريم، ولوكان الأمر كما يزعمون أيضا لاتبعوا السنة في كل ما ثبت فيها؛ لأن أدلة حُجِّيَّة السنة في القرآن الكريم ظاهرة واضحة، ولكنه التلبيس والبهتان، والتهويش وكل ذلك قديم حديث، والسنة العطرة تقاوم وتقف أمام كل ذلك كالطود الشامخ، الذي لا يضره وقوف الذباب عليه بل لا يحس به من أصله . قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الصف:٨

لذلك عقدت النية على دراسة أحاديث تدل على حُجِّيَّة السنة دراسة بلاغية، متأملا ومحللا ومبينا وجوه بلاغتها ، فهي بلاغة المعصوم – صلى الله عليه وسلم – الذي قال له ربه سبحانه :﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ ﴾ النساء:٦٣ بلاغة لا يبليها الزمان ولا يشبع منها صاحب الجنان تحبها الآذان وتقرب من الأفهام كالشمس ضياء، وتبعد رفعة وعلاء.

وقد أدرك علماء الحديث أهمية إثبات حُجِّيَّة السنة فعقدوا الأبواب والفصول في كتبهم كالبخاري(ت . ٢٥٦هـ) الذي عقد كتابا في صحيحه سماه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، وأبي داود (ت . ٢٧٥ هـ) في سننه

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٧ ت. الشيخ / محمود شاكر. مطبعة المدني ط الثالثة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

يعقد كتاب السنة ويجعل من أبوابه : باب لزوم السنة، والترمذي (ت. ٢٧٩ هـ) في سننه يجعل تحت كتاب العلم أبوبا منها : باب ما جاء في الأخذ بالسنة، باب في الانتهاء عما نهى عنه رسول الله – ﷺ – وسنن ابن ماجة (ت. ٢٧٣ هـ) يذكر من أبوابها : باب السنة وجعل فيه عدة أبواب منها : باب اتباع سنة الرسول – ﷺ – وباب تعظيم حديث رسول الله – ﷺ –.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أفردت الكتب التي تناولت حُجِّيَّة السنة وأدلتها مثل كتاب السنة لابن أبي عاصم (ت. ٢٨٧ هـ) وكتاب السنة للمروزي (ت. ٢٩٤ هـ) وكتابا الخطيب البغدادي (ت. ٤٦٣ هـ) : الكفاية في علم الرواية، وشرف أصحاب الحديث، وكتاب الحجة على تارك المحجة للحافظ المقدسي (ت . ٥٠٧ هـ) وكتاب مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للإمام السيوطي (ت. ٩١١ هـ)، وفي العصر الحالي توجه كثير من أهل العلم للدفاع والذب عن سنة رسول الله – ﷺ – وألفت الكتب والموسوعات وأقيمت المؤتمرات فانقلب السحر على الساحر، وبات الأمر من باب قول الله تعالى :

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ النساء

وقد وجهت وجهي إلى هذه الكتب؛ لجمع أهم الأحاديث التي كانت نصا في ثبوت حُجِّيَّة السنة، ودراستها دراسة بلاغية تحليلية؛ للوقوف على الأساليب والتراكيب النبوية التى بينت حُجِّيَّة السنة ودحضت أصحاب الفرى الخبيثة، فكانت كل كلمة فيها تثبت دعائم السنة، وتهدم تلك الأراجيف، وقد استقام هذا البحث في مقدمة تناولت فيها الموضوع وأسباب اختياره، وعملي فيه.

وتمهيد تناولت فيه : المراد بالسنة ومعنى حجيتها، وأدلة حجيتها من القرآن الكريم حتى تكمل الفائدة .

وثلاثة مباحث : الأول : السنة وحي من الله – تعالى –.

الثاني : وجوب التمسك بسنته – ﷺ – والأمر بطاعته – ﷺ – .

الثالث : شرف تبليغ الحديث وحرمة الكذب عليه – ﷺ – ثم الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث، ثم المصادر والمراجع وفهرست للموضوعات .

والله أسأل القبول والعفو والتجاوز عن الزلل وحسبي إخلاصي واجتهادي والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

وكتبه

د/ رضا السعيد فايد

غرة رمضان المعظم لعام ١٤٤٠ هـ

التمهيد

أولا: ما السنة؟

أردت من الإجابة على هذا السؤال بيان معنى السنة الذي يقصد إليه البحث :

السنة لغة:

جاء في لسان العرب :(وقد تكرر في الحديث ذكر السُّنَّة وما تصرف منها، والأَصل فيه الطريقة والسِّيرَة، وإذا أُطْلِقَت في الشرع فإنما يراد بها ما أَمَرَ به النبيُّ، ﷺ، ونَهى عنه ونَدَب إليه قولاً وفعلاً مما لم يَنْطق به الكتابُ العزيز، ولهذا يقال في أَدلة الشرع: الكتابُ والسُّنَّةُ أَي القرآن والحديث.... ويجوز أَن يكون من سَنَنْتُ الإِبلَ إذا أَحْسنت رِعْيتَها والقيام عليها.)[1]

وفي مقاييس اللغة: السين والنون أصلٌ واحد مطرد، وهو جريَان الشيء واطرادُهُ في سهولة، والأصل قولهم سَنَنْتُ الماءَ على وجهي أَسُنُّهُ سَنًّا، إذا أرسلتَه إرسالاً، ثمَّ اشتُقَّ منه رجل مسنون الوجه، كأنَّ اللحم قد سُنَّ على وجهه.

والحَمَأُ المسنون من ذلك، كأنه قد صُبَّ صَبّاً.ومما اشتقَّ منه السُّنَّة، وهي السّيرة.

وسُنَّة رسول الله ﷺ: سِيرته. قال الهذلي:

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ أنت سرْتَها ... فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يسيرُها

وإنّما سمِّيَت بذلك لأنها تجري جرياً، ومن ذلك قولهم: امضِ على سَنَنِك وسُنَنِك، أي وجهك ، و جاءت الريح سَنائِنَ، إذا جاءتْ على طريقة واحدة. ثمَّ يحمل على هذا: سنَنْتُ الحديدة أسُنُّها سَنّاً. إذا أمْرَرْتَها على السِّنان.

(١) لسان العرب (سنن). دارصادر بيروت.

والسَّنون: ما يُسْتاك به؛ لأنَّه يُسَنُّ به الأسنان سَنّاً. فأمّا قولهم: سَنَّ إبلَه، إذا رعاها، فإنّ معنى ذلك أنّه رعاها حَتى حسُنَت بَشَرتُها، فكأنّها قد صُقِلَتْ صَقْلاً، كما تُسنّ الحديدة. هذا معنى الكلام.(١)

وقد استعملت السنة في القرآن الكريم بمعنى الطريقة، قال الراغب: (وسُنَّةُ النّبيّ: طريقته التي كان يتحرّاها، وسُنَّةُ الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته، نحو: سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا [الفتح/ ٢٣]، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا [فاطر/ ٤٣]، فتنبيه أنّ فروع الشّرائع- وإن اختلفت صورها- فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدّل، وهو تطهير النّفس، وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره)(٢)

وقد بين الفخر الرازي وجوه الارتباط بين (السنة) ودلالتها اللغوية فقال " وَأَمَّا السُّنَّةُ فَهِيَ الطَّرِيقَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ وَالْمِثَالُ الْمُتَّبَعُ، وَفِي اشْتِقَاقِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: أَنَّهَا فُعْلَةٌ مِنْ سَنَّ الْمَاءَ يَسُنُّهُ إِذَا وَالَى صَبَّهُ، وَالسَّنُّ الصَّبُّ لِلْمَاءِ، وَالْعَرَبُ شَبَّهَتِ الطَّرِيقَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ بِالْمَاءِ الْمَصْبُوبِ فَإِنَّهُ لِتَوَالِي أَجْزَاءِ الْمَاءِ فِيهِ عَلَى نَهْجٍ وَاحِدٍ يَكُونُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ، وَالسُّنَّةُ فُعْلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَثَانِيهَا: أَنْ تَكُونَ مِنْ سَنَنْتُ النَّصْلَ وَالسِّنَانَ أَسُنُّهُ سَنًّا فَهُوَ مَسْنُونٌ إِذَا حَدَدْتَهُ عَلَى الْمِسَنِّ، فَالْفِعْلُ الْمَنْسُوبُ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - سُمِّيَ سُنَّةً عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ مَسْنُونٌ، وَثَالِثُهَا: أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: سَنَّ الْإِبِلَ إِذَا أَحْسَنَ الرَّعْيَ، وَالْفِعْلُ الَّذِي دَاوَمَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ - ﷺ - سُمِّيَ سُنَّةً بِمَعْنَى أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَحْسَنَ رِعَايَتَهُ وَإِدَامَتَهُ."(٣)

---

(١) مقاييس اللغة. لابن فارس (سنن) ج٣ ص ١٠٣ ت. أ / عبدالسلام هارون. دار الفكر. ط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م.

(٢) المفردات في غريب القرآن. الراغب الأصفهاني ص ٤٢٩ ت. أ/ صفوان عدنان. دار القلم. دمشق. ط أولى ١٤١٢ هـ

(٣) مفاتيح الغيب الفخر الرازي ج ٩ ص ٣٧٠. دار إحياء التراث العربي – بيروت ط الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

فالسنة في اللغة هي الطريقة الواحدة، والسيرة، وحسن الرعاية .

السنة اصطلاحا:

وأما معنى السنة في اصطلاح علماء الإسلام، فقد اختلف فيه باختلاف أغراضهم وفنونهم:

١- فهي عند العلماء الأصوليين عبارة عما صدر عن رسول الله - ﷺ - ما عدا القرآن الكريم من قول، أو فعل، أو تقرير، فهي عندهم أصل من أصول الأحكام الشرعية، ودليل من أدلتها وهي مع الكتاب في مرتبةٍ واحدةٍ من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية .

٢- وأما الفقهاء فهي عندهم عبارة عن الفعل الذي دل الخطاب على طلبه من غير إيجاب، ويرادفها المندوب والمستحب، والتطوع، والنفل، والتفرقة بين معاني هذه الألفاظ اصطلاح خاص لبعض الفقهاء، وقد تطلق على ما يقابل البدعة، منه قولهم طلاق السنة كذا، وطلاق البدعة كذا، فهم بحثوا عن رسول الله - ﷺ - الذي تدل أفعاله على حكم شرعي.

٣- وأما المحدثون، فإن الرأي السائد بينهم أن الحديث والسنة مترادفان متساويان يوضع أحدهما مكان الآخر . فالسنة على هذا المعنى في اصطلاح أهل الحديث ما أثر عن رسول الله - ﷺ - من قول أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية.(١)

ورد الدكتور / مصطفى السباعي - رحمه الله - هذا الاختلاف في تعريف السنة إلى اختلافهم في الأغراض التي يعني بها كل فئة من أهل العلم فعلماء الحديث إنما بحثوا عن رسول الله - ﷺ - الإمام الهادي الذي أخبر

(١) ينظر تفصيل ذلك في : حُجِّيَّة السنة. الشيخ / عبدالغني عبدالخالق ص ٤٥ وما بعدها. دار الوفاء. بدون. والسنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. د/ مصطفى السباعي. ص ٤٧ وما بعدها. نشر المكتب الإسلامي. دمشق. ط الثالثة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

اللهُ عنه أنه أُسْوَةٌ لنا وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وَخُلُقٍ وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال، سواء أَثْبَتَ ذلك حُكْمًا شَرْعِيًّا أم لا.

وعلماء الأصول إنما بحثوا عن رسول اللهِ المُشَرِّعِ الذي يضع القواعد لِلْمُجْتَهِدِينَ من بعده، وَيُبَيِّنُ للناس دستور الحياة، فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها.

وعلماء الفقه إنما بحثوا عن رسول الله – ﷺ – الذي لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعي، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا أو حرمة أو إباحة أو غير ذلك.(١)

والبحث يقصد بالسنة ما عناه الأصوليون كأصل من أصول التشريع ودليل من أدلة الأحكام .

ثانيا: ما معنى حُجِّيَّة السنة ؟

الحُجَّة في اللغة هي: البُرْهان والدليل(٢) فحُجِّيَّة السنة تعني أنها دليل على حكم الله ، فهي حجة على المسلمين ومصدر تشريع لهم (٣) وهذا يوجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها، وقد استهل الشافعي – رحمه الله – كتاب جماع العلم بإثبات حُجِّيَّة السنة، قال: " لم أسمع أحدا نسبه الناس أو نسب نفسه إِلَى عِلْمٍ يُخَالِفُ فِي أَنْ فَرَضَ اللَّهُ عز وجل اتباع أمر رسول الله وَالتَّسْلِيمَ لِحُكْمِهِ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَجْعَلْ لأَحَدٍ بَعْدَهُ إلا اتِّبَاعَهُ وَأَنَّهُ لا يَلْزَمُ قَوْلٌ بِكُلِّ حَالٍ إلا بِكِتَابِ اللَّهِ أو سنة رسوله وَأَنَّ مَا سِوَاهُمَا تَبَعٌ لَهُمَا وَأَنَّ فَرْضَ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى مَنْ بَعْدَنَا وَقَبْلَنَا فِي قبول الخبر عن رسول الله وَاحِدٌ لا يَخْتَلِفُ فِي أَنَّ الْفَرْضَ وَالْوَاجِبَ

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. د/ مصطفى السباعي ص ٤٩.
(٢) لسان العرب (حجج)
(٣) ينظر : حُجِّيَّة السنة . الشيخ / عبدالغني ص ٢٤٣ومابعدها .والجهود المبذولة في حُجِّيَّة السنة في القرن الرابع عشر الهجري. د/ محمد الزحيلي. مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية ج٢٢ ص ٣٥٠ العدد الأول ٢٠٠٦.

قَبُولِ الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – إلا فِرْقَةٌ سَأَصِفُ قَوْلَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى".(١)

وعقد الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية في علم الرواية بابا سماه " بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ – تَعَالَى – وَحُكْمِ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – ، فِي وُجُوبِ الْعَمَلِ وَلُزُومِ التَّكْلِيفِ(٢) وساق كثيرا من الأدلة التي تؤيد ذلك.

وكان السيوطي رحمه الله حصيفا ذكيا في تصنيفه لكتاب يبين فيه حُجِّيَّة السنة وأدلتها من الكتاب والسنة وقد حمل عنوانه أجمل البشريات لمن احتج بالسنة ، حيث جعل هذه الحُجِّيَّة معارج الوصول إلى جنة الخلود وهو كتابه الماتع : (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة) بين فيه أدلة الاحتجاج بالسنة وأقوال أهل العلم في ذلك (٣).

واستدل الشوكاني بأدلة من القرآن والسنة، عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ الْمُطَهَّرَةَ مُسْتَقِلَّةٌ بِتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ وَأَنَّهَا كَالْقُرْآنِ فِي تَحْلِيلِ الْحَلَالِ وَتَحْرِيمِ الْحَرَامِ حتى خلص إلى قوله : " وَالْحَاصِلُ أَنَّ ثُبُوتَ حُجِّيَّة السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ وَاسْتِقْلَالَهَا بِتَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ ضَرُورَةٌ دِينِيَّةٌ وَلَا يُخَالِفُ فِي ذَلِكَ إِلَّا مَنْ لَا حَظَّ لَهُ في دين الإسلام.(٤)

وأخيرا فإن سنة رَسُول الله – ﷺ – وَحي أوحاه الله إِلَى نبيه مُحَمَّد – ﷺ – وَهِي مَعَ كتاب الله الْعَزِيز أساس الدّين الإسلامي ومصدره وهما مَعًا متلازمان تلازم شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَشَهَادَة أَن مُحَمَّدًا رَسُول الله وَمن لم

(١) جماع العلم. الشافعي. ص ٣ دار الآثار ط الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م
(٢) الكفاية في علم الرواية. الخطيب البغدادي. ص ٢ ت. أ / أبوعبدالله السورقي. المكتبة العلمية. المدينة المنورة. بدون
(٣) ينظر : مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة. الإمام السيوطي. ص ٥ وما بعدها نشر الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة ط الثالثة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م
(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول. الشوكاني. ج١ ص ٩٦. ت. الشيخ /أحمد عزو. دار الكتاب العربي. دمشق. ط أولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

يُؤمن بِالسنةِ لم يُؤمن بِالْقُرْآنِ.[١] إن علاقة القرآن بالسنة، أشبه بعلاقة القرابة التي لا يمكن فصلها أو فصمها، فمن حاول الاستدلال بالقرآن بمعزل عن السنة، أو الاستدلال بالسنة بمعزل عن القرآن، كمن حاول التفريق بين أغصان الشجرة وأصلها، وبين القريب وقريبه، وكلٌ محاولة للاستغناء بأحدهما عن الآخر، فإنما هو ضربة لازب، وسير في عماية، وخروج عن النهج المستقيم، ذلك أن السنة صنو القرآن وقرينته في الاستدلال والاحتجاج .[٢]

وقد نطقت آيات القرآن الكريم بتلك الحُجِّيَّة :

قال تعالى:

- {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } الحشر ٧ .
- {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}النحل ٤٤ .
- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } النساء ٥٩ .
- {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } النساء ٦٥
- {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا } الأحزاب ٣٦ .

فهل يبقى حجة لأحد بعد هذه الآيات البينات؟! إن حال هؤلاء الشراذم مع السنة كحال المريض مع الماء الزلال:

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا [٣]

---

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة ص٣ مقدمة الناشر.

(٢) السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقرآن الكريم أ/ الحسين بن محمد آيت سعيد. ص٤٣ نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة. بدون.

(٣) ديوان المتنبي ص ١٤١ ،دار بيروت للطباعة والنشر ط أولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م،

المبحث الأول:

السنة وحي من الله - تعالى -

تمهيد :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ النجم: ٣ – ٤

فأعلمنا ربنا سبحانه وتعالى، أن رسوله {ﷺ}، لا ينطق عن هوى وغرض، وإنما ينطق حسبما جاءه الوحى من الله تعالى.

فكلمة "ينطق" فى لسان العرب تشمل كل ما يخرج من الشفتين من قول أو لفظ أى ما يخرج نطقه {ﷺ} عن رأيه، إنما هو بوحى من الله عز وجل.

ولقد جاءت الآيتان بأسلوب القصر عن طريق النفى والاستثناء، والفعل إذا وقع فى سياق النفى دل على العموم، وهذا واضح فى إثبات أن كلامه ﷺ، محصور فى كونه وحياً لا يتكلم إلا به، وليس بغيره.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ ﴾ القيامة: ١٧ –١٩

وهذا وعد قاطع بأن بيان القرآن، سوف يتولاه الله تعالى، كما تولى :﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ ﴾ القيامة: ١٧على حد سواء، ولا معنى لهذا سوى أن يوحى إلى رسوله ﷺ، هذا البيان، بصورة ما من صور الوحى، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ۝١١٣ ﴾ النساء: ١١٣ وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٣١ ﴾ البقرة: ٢٣١ فهاتان الآيتان تفيدان - أن الله تبارك وتعالى – أنزل على رسوله شيئين: الكتاب: وهو القرآن، والحكمة: وهى سنته ﷺ. (١)

(١) عصمة الرسول – ﷺ – د / عماد الشربيني ص٣١٥ "كتاب اليكتروني على الشاملة".

ولماذا لا تكون السنة وحيا من الله و(الكتاب المجيد بحاجة إلى السنة تبينه وتفصله، فقد كانت السنة من وحي – الله تعالى – إلى نبيه – ﷺ – حتى يكون المبيِّن والمبيَّن من مصدر واحد، وعلى مستوى واحد، وحاشا – الله تعالى – أن ينزل الكتاب وحيا، ثم يترك بيان ما فيه لبشر بعيداً عن الوحي. فإن المبيِّن له نفس أهمية المبيَّن من حيث هو وسيلة الانتفاع به، وسبيل العمل بمقتضاه، من ذلك كان القرآن المجيد والسنة النبوية المطهرة يصدران من مشكاة واحدة، مشكاة الوحي الإلهي المعصوم.) [١] السنة المطهرة إذن "وحى من الله تعالى ، إلا أنها تفارق القرآن الكريم في أمور:

١- أنها نزلت بالمعنى ولفظها من النبي – ﷺ – ومن هنا جاز روايتها بالمعنى للخبير بمقاصدها العارف بمعانيها وألفاظها عند من يرى ذلك من العلماء.

٢- أنها ليست معجزة بألفاظها، ولا متعبداً بتلاوتها[٢].

وإذا شهد القرآن بأن السنة وحي من الله فإن السنة نفسها شهدت بذلك وهذه دراسة بلاغية لحديثين شريفين يثبتان ذلك :

(١) شبهات القرآنيين حول السنة النبوية د/ محمود محمد مزروعة ص ١الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

(٢) السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقران الكريم. أ /:شيخة بنت مفرج المفرج. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

الحديث الأول

عن المقدام بن معدي كرب عن رسول الله – ﷺ – قال : " ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ، ألا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه، ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليِّ، ولا كلِّ ذي نابٍ من السَّبُعِ، ولا لُقَطةِ معاهَدٍ، إلَّا أن يستَغني عَنها صاحبُها، ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه، فإن لَم يُقْرُوه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاه "[1]

صدق رسول الله – ﷺ – .

هذا الحديث له روايات كثيرة وقد جعلت رواية أبي داود هي الرواية الأم ؛ لشمولها لكل الروايات الأخرى مع النص على صحتها؛ فقد صححها الألباني والشيخ شعيب الأرنؤط، ولن يغفل البحث الروايات الأخرى بل سيعرج عليها في معرض تناول الرواية محل الدراسة .

---

(١) سنن أبي داود. كتاب السنة، باب في لزوم السنة، ج ٧ ص ١٣. ت شعَيب الأرنؤوط – محَمَّد كامِل قره بللي. دار الرسالة العالمية الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م والترمذي، كتاب العلم، باب ما نهى أن يقال عند حديث النبي – ﷺ – ٤ / ١٤٤، وسنن ابن ماجة ج ١ص ٩ شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد – محمَّد كامل قره بللي – عَبد اللّطيف حرز الله الناشر: دار الرسالة العالميةالطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م وسنن الدارمي ج١ ص ٤٧٣رقم ٦٠٦ ت. أ /حسين سليم أسد الداراني الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م و صحيح ابن حبان ج١ ص ١٨٩ مؤسسة الرسالة. بدون والسنن الكبرى للبيهقي ج٧ ص ١٢٠ رقم ١٣٤٤١ ت.أ/محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، و مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٢٨ص ٤١٠ رقم ١٧١٧٤ ت. شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي . مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م. واللفظ لأبي داود. وصححه الألباني.ينظر : موسوعة الألباني للحديث على شبكة المعلومات الدولية (النت).

وهذا النص النبوي دليل قاطع على نبوة الرسول – ﷺ –؛ فالنبي – ﷺ – يخبر عن أمر مستقبلي كأنه يحياه ويعايشه فينكره ويعالجه، فقد بين النبي – ﷺ – أن الله لم يعطه القرآن فقط، بل أعطاه الله القرآن والسنة، ولذلك لا ينبغي لأصحاب الدعة والكسل أن يكتفوا بما جاء في القرآن الكريم؛ لأن السنة لها حق التشريع والتحليل والتحريم، ويسوق النبي – ﷺ – بعض المحرمات التي لم تذكر في القرآن الكريم ، مثل تحريم الحمار الأهلي وتحريم كل ذي ناب من السباع، وتحريم لقطة المعاهد التي لا يستغني عنها، ويأمر بإكرام الضيف .

هذا هو المعنى العام للحديث لكن الحديث نفسه شيء آخر :

استهل البيان النبوي السابق بلا مقدمات لا منه – ﷺ – ولا من الراوي وكل روايات الحديث جاءت على هذا النحو إلا رواية الدارمي عن المقدام بن معد يكرب حيث مهد الراوي لكلام النبي – ﷺ – بقوله : (حرم رسول الله – ﷺ – أشياء يوم خيبر : الحمار وغيره، ثم قال : ليوشك الرجل متكئا على .... الحديث)[1] وقد كشفت هذه الرواية الظرف الزمني لهذا البيان النبوي، وهو يوم فتح خيبر وقد كان ذلك في العام السابع للهجرة، ولعل التأكيد على حُجِّيَّة السنة في يوم انتصر فيه المسلمون على اليهود إيماء بأن يهود لن ينقطع مكرهم ولن يملوا من النيل من دين الله وأن القول بالاكتفاء بالقرآن لا يقول به إلا من هم أشد الناس عداوة لدين الله كاليهود ومن على شاكلتهم، فليحذر المسلمون من مكرهم وخداعهم .

وبهذه الجملة الرصينة المتينة :

(ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)

استهل النبي بيانه داخلا في جوهر الموضوع مباشرة، وهذه الجملة هي الأم لهذا الحديث بل هي الأم لكل أحاديث حُجِّيَّة السنة؛ وبنظرة متأملة

(١) سنن الدارمي ج ١ ص ٤٧٣ رقم ٦٠٦.

نستطيع رد كل هذه الأحاديث إلى هذه الجملة : فمثلا قول النبي – ﷺ– : (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا : كتاب الله وسنتي)[١] يرد إلى هذه الجملة؛ فالتمسك بالسنة كالتمسك بالكتاب في الهداية وعدم الضلال؛ لأن كليهما وحي من الله ﷻ، وقوله عليه الصلاة والسلام : (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)[٢] فطاعة الرسول – ﷺ– في كل حال واجبة ؛ لأن هذه الأوامر والنواهي وحي من الله، وهكذا لو تتبعنا كل أحاديث الباب لوجدنا رباطا قويا يجمع بينها وبين هذه الجملة الكريمة :

(ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)

وأزيد وأقول: إن هذه الجملة هي الأم في عقيدة المسلم وهي لا تحمل بشرى ولا تدل على إنذار، بل هي رسالة الإسلام فمن آمن بها فقد تحقق له كمال الإيمان، وأخجل ويخجل قلمي ولا ينطلق لساني إن قلت: إن في هذه الجملة براعة استهلال؛ لأنها فوق المصطلح الذي يظلمها ولا يؤدي حقها فهي آية في الحسن والإبداع، وأجمل وأبرع ما يفتتح به في الرد على من ينكر حُجِّيَّة السنة.

وعندما تقرأ هذه الجملة لا تستطيع أن تقف دون تمام هذا النص الشريف وهذا هو معنى كلام الإمام الطيبي في بيان روعة النظم في هذا الحديث، قال – رحمه الله – :(أما بيان النظم فإنه – ﷺ – قرر أولا بقوله:((ألا إني أوتيت الكتاب)) أنه – ﷺ – شرع أيضا أحكاما في الدين سوى القرآن، وثنى بتوبيخ من أنكر ذلك، وجعله متكبرا بطرا طاغيا، وثلث بما يشعر بالتعليل، وأن له أن يستقل بالأحكام، وربع ببيان صور معدودة تحقيقا للمطلوب كما مر)[٣]

---

(١) الترمذي ج ٢ ص٣٠٨ وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ج٤ ص ٣٥٥.

(٢) صحيح البخاري. . ج٦ صـ٢٦٥٨، وصحيح مسلم. جـ٢ صـ٩٧٥.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) ج ٢ ص ٦٣١ ومابعدها.ت: د. عبد الحميد هنداوي الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض)الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.

فأجزاء الحديث وجمله متحدة متآخية ، مكونة معنى واحدا، وساعية إلى مقصد واحد هو استقلال السنة بالتشريع؛ و لأنها وحي من الله فالجملة الأولى رد مكين على هذا الشبعان الساقط الهمة، وذكر هذه المحرمات بيان عملي للجملة الأم (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) وهذا هو النمط العالي من النظم الذي عناه عبدالقاهر بقوله : (اعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت: أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه هاهنا في حال ما يضع بيساره هناك . نعم، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين) [١] فجمل هذا الحديث أشبه بدوائر يتولد بعضها من بعض، وكأن كلامه – ﷺ – كما يقول شيخنا أبوموسى: (تجري فيه شرايين تتدفق بالمعاني والإشارات) [٢]

وقد خرجت هذه الجمل من نفس غضبة آلمها ما يحدث من إنكار للسنة وكأني برسول الله – ﷺ – وقد فتح الله له حجب الغيب فاطلع على أمر هؤلاء فانطلق مبينا ومحذرا؛ إن النبي – ﷺ – لم يصدر في بيانه إلا من منطلق واحد وهو الغيرة على دين الله، فهو يعالج أمرا إمرا وواقعا نكرا، كأنه يراه بعينه وتسمعه أذنه، ينطق بهذا تلكم الجمل المتتابعة التي خرجت كالسهام النافذة :

- ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ .
- ألا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ .....
- ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليِّ.....

ويلاحظ على هذه الجمل إجمالا أمور :

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٣.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري. د / محمد أبوموسى ص ٢٦٠ مكتبة وهبة ط أولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠ م

- أولها : مجيء (ألا) الاستفتاحية التنبيهية وهي تدل على تحقق ما بعدها فهي تحقق كون النبي صلى الله عليه و سلم آتاه الله مثل القرآن وهو السنة، وتحقق قرب وقوع إنكار السنة من ساقطي الهمة، وتحقق استقلال النبي – ﷺ – بالتشريع، وإفادتها التحقيق راجع إلى تركيبها من الهمزة و(لا) وهمزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أفادت التحقيق[١] وهي – أيضا – تنبه المتلقي إلى خطورة ما يأتي بعدها من كلام ، و تجعل المتلقي في أقصى درجات الإحساس بالمعنى؛ فأدوات الاستفتاح لما كان شأنها أن ينبه بها السامعون دلت على الاهتمام بالخبر وإشاعته وإعلانه، وعلى أبلغية ما تضمنه الخبر، ويدل ذلك أيضا على كمال ظهور مضمون الجملة للعيان لأن أدوات التنبيه شاركت أسماء الإشارة في تنبيه المخاطب[٢]. ومن أجل هذه المعاني الدلالية كثر استخدام (ألا) في البيان النبوي؛ فالنبي يصوغ معانيه صياغة لافتة حتى تعمق في النفوس، وتسكن في سويداء القلوب؛ خاصة أن حياة النبي – ﷺ – كلها بعملها وقولها، وحركتها وسكونها، ما هي إلا دعوة إلى الله – سبحانه – .
- ثانيها : تكرار (ألا) واستفتاح كل الجمل بها، فكثفت المعنى وساهمت في إعلاء النبرة وكشفت عن غضب النبي – ﷺ –؛ لأن النص النبوي يعالج أمرا فيه هلاك للأمة وضياع للدين، فلا معنى للهدوء والتريث هنا، بل هو الاحتشاد والحسم والإلهاب يقول الطيبي : (وتكررها –يقصد(ألا) في هذا الحديث توبيخ وتقريع نشأ من غضب عظيم على من ترك السنة والعمل بالحديث، استغناء عنها بالكتاب، هذا مع الكتاب فكيف بمن رجح الرأي

(١) ينظر : أمالي ابن الحاجب ج ٢ ص ٨٣٨ ت. د/ فخر قدارة. دار الجيل بيروت ط أولى ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م

(٢) ينظر : التحرير والتنوير. الطاهر ابن عاشور ج ١ ص ٢٨٦ الدار التونسية ط ١٩٨٤ م.

على الحديث؟ وإذا سمع حديثا من الأحاديث الصحيحة قال: لا علي بأن أعمل بها، فإن لي مذهبا أتبعه.) (١)

- ثالثها : عدم وجود الرابط اللفظي (الواو) لأن الجمل خرجت زفرات متتالية تعالج أمرا يهدم الدين، - فالنبي ﷺ - يستأنف أخبارا تستأصل هذا المرض، وحمل نسق الكلام على الاستئناف الابتدائي أولى لقصد الاستقلال بالدليل فكل جملة دليل مستقل على حُجِّيَّة السنة ، فقد أخبر النبي - ﷺ - بأنه أوتي القرآن والسنة ثم استأنف خبرا آخر ينكرفيه ما سيحدث من أصحاب الدعة والكسل ، ثم استأنف خبرا آخر يبين استقلال السنة بالتشريع وأن منه التحليل والتحريم ، فكأن كل جملة دليل بنفسها تعمد إلى شبهة فتزيلها وتنقضها لتتحد جميع الجمل في تجلية مكانة السنة وأنها وحي من الله - تعالى - له سلطته على المسلمين .

ولم تذكر (الواو) إلا مع قوله - ﷺ - في نهاية الحديث : (ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه) فذكرت (الواو) لإظهار التغاير بين هذه الجملة وما قبلها؛ لأن عدم إكرام الضيف ليس بمحرم (ولكنه خارج عن سمة أهل المروءة، وهدى أهل الإيمان، وليتأهل فاعله أن يخذل، ويستهجن فعله، ويجازى بكل قبيح) (٢) فالقضية التي يعالجها النبي - ﷺ- في هذه الجملة غير القضية التي عالجها في الجمل السابقة وما ذكرته هو نظرة عامة للبناء النظمي للحديث وأعود إلى أجزاء هذا البناء لنقف على دقة صياغته وقوة حبكه وشدة سبكه، فقول النبي - ﷺ - : "ألا إنّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ"

جملة قريبة المأتى سهلة الفهم إلا أنها مع ذلك عميقة الأثر، كثيفة الدلالات، متقنة البناء، تقتلع وحدها كل تلبيس أو شبهة تلحق السنة النبوية الكريمة، وهذه الجملة صيغت صياغة مؤكدة بعد تهيئة العقول للتلقي

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح) ج ٢ ص ٦٣٢.ت.د. عبد الحميد هنداوي مكتبة نزار مصطفى الباز مكة المكرمة ط الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

(٢) شرح الطيبي ج ٢ ص ٦٣٢.

من خلال التنبيه بـ(ألا) فمجيء (إن) أكد نسبة الخبر(أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ) لضمير النبي – ﷺ – ، فهي بمنزلة تكرار الجملة. وتكون لمجرد التأكيد إن كان المخاطب عالما بالنسبة، ولنفي الشك فيها إن كان مترددا فيها. وإن كان منكرا لها، فهي لنفي الإنكار. والتوكيد لنفي الشك مستحسن، ولنفي الإنكار لازم، ولغيرهما لا، ولا تستعمل إلا في تأكيد الإثبات.[١] وقد جاءت (إنَّ) هنا لنفي إنكار منكري حُجِّيَّة السنة فهي تؤكد أن الله أعطاه مع القرآن الكريم السنة المشرفة وذلك في مواجهة منكري هذه السنة كما أن القضية مهمة في نفسها فناسب ذلك تأكيد مضمون الجملة؛ حرصا منه – ﷺ – على تقوية هذا المعنى في نفس المتلقي خاصة أن الإيمان بهذه الجملة هو الحصانة الكافية لرد كل الشبهات المثارة حول السنة المشرفة، ولعل وجه دلالة " إنَّ " على التأكيد كامن في جانبين:

الأول: من ناحية البناء الصوتي لهذا الحرف؛ حيث ينبعث الهواء المقذوف من الحلق إلى الخياشيم فيتردد ويجول فيها ، ويسمع لجولانه في الأنف صدى ناعم تتبعه غنة مدوية باحتكاك الهواء بجدار الأنف، فيحدث في السمع إيقاعا يتكرر مرة بالسكون ثم أخرى بالفتح، وبذلك يزداد السامع والسمع تشبعا به فيستقر مفهومه في الذهن، وغايته في الوجدان، وحينئذ يقع الكلام مؤكدا.

ثانيا: من جانب المعنى فكل جملة اقترنت بـ " إنَّ " تدل على معنى زائد يُضاف إلى أصل المعنى المراد، فكأن الجملة التي اقترنت بـ " إنّ " قد تكررت مرتين، فأفادت في المرة الأولى التأسيس وأفادت عند الإعادة التوكيد والتقرير[٢].

---

(١) ينظر : ضياء السالك إلى أوضح المسالك د/ محمد عبد العزيز النجار ج ١ ص ٢٩٦ مؤسسة الرسالة ط الأولى ١٤٢٢ هـ

(٢) أفدت هذه الدلالات مما ذكره الشيخ العلامة / محمود محمد شاكر. في بحث له بعنوان: علم أصوات الحروف سر من أسرار العربية، مجلة المقتطف صـ٦٤ عدد يونيو ١٩٤٠م.

والتعبير بـ(أوتيت) لـه بلاغتـه وخلابتـه من ناحيـة مـادة الفعل (أتـى)، ومـن ناحية بناء الفعل للمفعول ؛ فالفعل (أتى) يدل على يسر وسهولة الإتيان، وفيه معنى التفضل والامتنان، دون وجوب أو إلزام(١)؛ وهذه المعاني مناسبة لفاعل العطاء وهو الله سبحانه الذي أمره بين الكاف والنون، والمعطَى هو القرآن والسنة وكلاهما روح ونور تتلقاهما النفس السوية بانشراح وإقبال فكيف باستقبال سيدي رسول الله – ﷺ – أطهر النفوس ، وأصفى القلوب، وأذكى العقول؛ ولذلك كان لهذا الفعل (أتى) مزيد اختصاص بـ(الكتاب) في القرآن الكريم(٢)

وجاء الفعل مبنيا لما لم يسم فاعله، لأن الاهتمام مركز على الحدث، فالغرض المهم الذي من أجله سيق الحديث كله هوإثبات إيتاء النبي الكتاب والسنة، خاصة أن الفاعل معروف ولا منازعة فيه ولا إنكار ولذلك كثر مجيء (أتى) مبنيا لما لم يسم فاعله في القرآن الكريم(٣)، لأن مقام الإيتاء معلوم وشائع أنه لله –سبحانه – وليس لأحد غيره.

والمقصود بـ(الكتاب) القرآن الكريم ، ومعناه هو الكتاب الجامع لصفات الكمال في جنس الكتب بناء على أن غيره من الكتب إذا نسبت إليه كانت كالمفقود منها وصف الكتاب لعدم استكمالها جميع كمالات الكتب، فتعريف (الكتاب) باللام الجنسية أفاد أنّ ما سواه ناقص، وأنه المستحق لأن يسمى كتابا وهذا التعريف قد يعبر عنه النحاة في تعداد معاني لام التعريف بمعنى الدلالة على الكمال وحمل (اللام) في(الكتاب) على أنها للجنس أولى من القول بأنها للعهد للمعاني السابقة.

---

(١) ينظر: الإتيان والمجيء : فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم د/ محمود موسى حمدان ص ١٧. مكتبة وهبة ط أولى ١٤١٨ هـ/١٩٩٨ م.

(٢) ينظر: في سورة البقرة الآيات : (٥٣)، (٨٧)، (١٣٦)، (١٢١)، (٢١١)، (٢٦٩).

(٣) ينظر: في سورة البقرة الآيات : (١٠١)،(١٤٤)، (١٤٥)، وآل عمران (١٩)، (٢٠)، (٨٤)، (١٠٠)، (١٨٦)، والنساء (٤٤)، (٤٧).

و(الكتاب) فعال بمعنى المكتوب إما مصدر كاتب المصوغ للمبالغة في الكتابة، فإن المصدر يجيء بمعنى المفعول كالخلق، وإما فعال بمعنى مفعول كلباس بمعنى ملبوس وعماد بمعنى معمود به. واشتقاقه من كتب بمعنى جمع وضم؛ لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه، وتسمية القرآن كتابا إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه(١).

وقد جاءت رواية للإمام أحمد نصها : (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ ...) وهذه الرواية تحمل أعلى طاقات التأكيد من خلال تكرار الجملة فالنبي يؤكد على عطاء النورين له نور القرآن الكريم ونور السنة المشرفة، وإن كان ثمة مغايرة في التعبير بـ(الكتاب) تارة وبـ(القرآن) أخرى فذلك له وجاهته ودلالته إذ (روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًّا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونا بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز.)(٢) وكأن مجيء السنة مرة مع الكتاب وأخرى

(١) ينظر: التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور ج ١ ص ٢٢١ الدار التونسية . ط ١٩٨٤. وحَاشِيَةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري ج ١ص ٢٠٢دار صادر – بيروت. بدون

(٢) النبأ العظيم. د/ محمد عبدالله دراز ص ١٢ وما بعدها دار الثقافة للنشر والتوزيع ط ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

مع القرآن يوجه المسلمين إلى حفظ السنة في السطور، و في الصدور لأن حفظها من حفظ القرآن الكريم .

وتأكيدا على أن النبي – ﷺ – ينزل عليه وحي آخر غير القرآن وهو السنة جاء قوله – ﷺ – (ومثله معه) وكان من الممكن أن يأخذ النظم النبوي أسلوبا آخر كأن يقال : أوتيت الكتاب والسنة، ويكون المعنى أكثر تصريحا ولكن البيان النبوي لم يقصد بيان أن الله – تعالى – آتاه السنة مع القرآن فقط وإنما قصد إلى معنى أعمق وأبعد غورا وأغزر دلالة وهو ما تدل عليه (مثل) وقد ذكر الخطابي أن هذه المثلية تحتمل وجهين : أحدهما أن يكون معناه أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطي من الظاهر المتلو، ويحتمل أن يكون معناه أنه أوتي الكتاب وحياً يتلى، وأوتي من البيان أي أذن له أن يبين ما في الكتاب ويعم ويخص وأن يزيد عليه فيشرع ما ليس له في الكتاب ذكر فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن.[1]

ولامانع من الأخذ بالوجهين فالنبي – ﷺ – أوتي الوحي الظاهر وهو القرآن الكريم وأوتي الوحي الباطن وهو السنة مفصلة لمجمل القرآن وشارحة ومبينة لمعانيه، ومع كل ذلك مستقلة أيضا بالتشريع، خاصة أن أداة التشبيه (مثل) تدل على أن (المحكوم عليه بالمماثلة متفق مع ما يماثله في جميع الجهات التي يصير بالاتفاق معه فيها على مثاله فيكونان جنسا واحدا)[2] فـ(مثل) تدل على أن القرآن والسنة يشتركان في أوصاف كثيرة، مما يجعل الأمر يتعدى حد المشابهة إلى درجة عالية من المماثلة فقد جيء بأداة التشبيه " مثل " المفيدة لاشتراك المشبه مع المشبه به، في غالب الأوصاف، للتأكيد على تمام التشابه

(١) ينظر : معالم السنن. الخطابي ج ٤ ص ٢٩٨المطبعة العلمية – حلب ط الأولى ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢م.

(٢) أدوات التشبيه : دلالاتها واستعمالها في القرآن الكريم. د/ محمود موسى حمدان ص٢١ مطبعة الأمانة ط أولى ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م

بين القرآن والسنة تشابها يرقى إلى درجة المماثلة، يقول الأستاذ الدكتور / عبد العظيم المطعني . رحمه الله . متحدثا عن طبيعة التشبيه بـ"مثل" : "وظاهر كلام المصنفين أن "شبه" و "مثل" دلالتهما علي التشبيه واحدة، ولكن التذوق والواقع والاستعمال، يشعر بوجود فارق كبير، فذوات " الميم ، والثاء، واللام " معناها مباين نوعا ما لمعني ذوات " الشين، والباء، والهاء " بعد التقائهما جميعا في أصل الدلالة، وهي التنظير بوجه عام، فإذا كان التشبيه يتحقق بوجود وصف مشترك بين الطرفين أو أوصاف، فإن من حق التماثل أن يتعدي هذا الحد فتكون دلالته علي أن الطرفين يشتركان في أوصاف كثيرة، حتى يظن أن كلاً من الطرفين هو الآخر"(١) ونستطيع أن نرصد وجوها مشابهة عديدة بين القرآن الكريم والسنة المطهرة فكلاهما وحي من الله –ﷻ – ومستقل بالتشريع، و يلزم المسلم العمل بما جاء فيهما ، والحفظ من الله – ﷻ – والانشراح لهما، وقوة التأثير، وروعة البيان، وهو في القرآن الكريم معجز وفي البيان النبوي وإن كان غير معجز إلا أنه في أعلى مراتب البيان البشري، إلى غير ذلك من وجوه الالتقاء. وقد بين الخطيب البغدادي في كتابه الكفاية في علم الرواية هذه المماثلة فاستهل أبواب هذا الكتاب بقوله: "بَاب مَا جَاءَ فِي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُكْمِ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ –، فِي وُجُوبِ الْعَمَلِ وَلُزُومِ التَّكْلِيفِ"(٢)

والذي يؤكد على هذه المماثلة رواية ابن حبان عن المقدام بن معد يكرب (إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمَا يَعْدِلُهُ) (٣) والعدل والعدل بالكسر والفتح بمعنى المثل. وقيل: هو بالفتح ما عادله من جنسه، وبالكسر ما ليس من جنسه.

(١) الحكمة والمثل والتمثيل نظرات في أصولها وخصائصها الفنية د / عبد العظيم المطعني مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود. العدد الحادي والعشرون ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م صـ٣٣/٣٤.

(٢) الكفاية في علم الرواية ص ٨.

(٣) صحيح ابن حبان ج١ ص ١٨٩ مؤسسة الرسالة. بدون.

وقيل بالعكس[١]. فهذه الكلمة (يعدله) تفيد معنى المماثلة إلى درجة تقترب من التسوية ، **يقول ابن منظور** : (والعَدْلُ والعِدْلُ والعَدِيلُ سَواءٌ أَي النَّظِير والمَثِيل، وقيل هو المِثْلُ وليس بالنَّظِير عَيْنه وفي التنزيل أَو (عَدْلُ ذلك صِياماً)[٢] وتأكيدا على قوة التلازم بين القرآن والسنة جاء قوله : (معه) وهي صفة لمثله؛ لأن المثل متوغل في الإبهام، ، فمعناه أوتيت مثل الكتاب مصاحبا مع الكتاب أحكام وسنن مثله[٣] وهو إيغال حسن عمق العلاقة بين القرآن والسنة؛ إذ دل على قوة العلاقة بينهما وأنها متآخية متلازمة منذ اللفظ القرآني الأول الذي نزل على سيدنا رسول الله – ﷺ – فالوحي بالسنة كان ملازما للوحي بالقرآن، فالقرآن يأمر بالصلاة والسنة تبين، ويأمر بالزكاة والسنة تفصل، ويأمر بالحج والسنة تشرح، القرآن ينزل بمحرمات والسنة تزيد فيها، يسكت القرآن عن أشياء ويترك للسنة القول فيها، فهذه المعية تدل على أن السنة كلها وحي من الله – تعالى– وأنها كانت تنزل كما ينزل القرآن يقول الزركشي : (السُّنَّةُ كُلُّهَا وَحْيٌ وَلَكِنَّهُ لَا يُتْلَى وَالْقُرْآنُ وَحْيٌ يُتْلَى وفي السُّنَنِ أَنَّ النبي – ﷺ – قال أَلَا إنِّي أُوتِيت الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ معه وفي حديث الذي سَأَلَهُ عن الْعُمْرَةِ فَأَخَذَهُ ما كان يَأْخُذُهُ عِنْدَ نُزُولِ الْوَحْيِ ثُمَّ سُرِّيَ عنه فقال : اصْنَعْ في عُمْرَتِك ما تَصْنَعُ في حَجَّتِك وهو حَدِيثٌ صَحِيحٌ **وهو دَلِيلٌ قَطْعِيٌّ على أَنَّ السُّنَّةَ كانت تَنْزِلُ كما يَنْزِلُ الْقُرْآنُ)** [٤] وهذه المعية أراها تدل – أيضا – على أن السنة ليست المصدر الثاني للتشريع بل هي " وحي أوحاه الله تعالى

(١) ينظر : النهاية في غريب الحديث والأثر. مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير ج ٣ ص١٩١ ت: د/ طاهر أحمد الزاوى – د/ محمود محمد الطناحي . المكتبة العلمية – بيروت، ط ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م.

(٢) لسان العرب. ابن منظور.(عدل) والآية في سورة المائدة رقم (٩٥).

(٣) شرح الطيبي ج ٢ ص ٦٣٠

(٤) البحر المحيط في أصول الفقه. الزركشي. ج ٨ ص ٢٥١دار الكتبي. الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

إلى نبيه محمد – ﷺ –، وهي مع كتاب الله العزيز أساس الدين الإسلامي ومصدره، وهما متلازمان تلازم شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله." (١) وإذا كانت السنة وحيا من الله فما أقبح أن ينكرها دعي بطر كسلان وهذا ما ثنى به النبي – ﷺ – في قوله :

"ألا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرّمُوه "

إن النبي – ﷺ – بلغ بهذا البيان أقصى الجهد في تبليغ رسالته والنصح لأمته؛ والقاريء لهذا النص لا يملك إلا أن يقول: سبحان الله كأن رسول الله – ﷺ – يعيش بيننا، ويرى هؤلاء الحاقدين ويسمع مكرهم فيوبخهم ويحذر منهم بهذه الكلمات النافذة، يقول الخطابي : (فإنه يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله – ﷺ – مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضُمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا)(٢) وهذا التحذير له مذاق مختلف فلم يقل مثلا: إياكم الاكتفاء بالقرآن أو ليس منا من قال عليكم بالقرآن، إلى غير ذلك من أساليب التحذير، فالرسول– ﷺ–يحذر من ترك السنة وإهمالها من خلال رسم صورة منفرة للسالك هذا المسلك القميء فالبلاغ هنا بلاغ نافذ ومؤثر، لأنه بلاغ يقرأ ويسمع ويرى، " وإذا كان البيان الذي تسمعه الأذن تتسع معانيه فإن البلاغ الذى تراه العين تكون معانيه أوسع"(٣)

وقد وقع هذا الجزء من الحديث بين جزءين يعملان على رده ودحره؛ فقوله أولا: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه "يرد على هذا المدعي قوله

(١) مقدمة تحقيق كتاب السنة. المروزي. ص٥. ت. د/ عبدالله بن محمد البصيري. دار العاصمة. الرياض.ط أولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠١ م

(٢) معالم السنن. الخطابي ج ٤ ص ٢٩٨.

(٣) شرح أحاديث من صحيح مسلم. د/ محمد أبوموسى ج ٢ ص ٥٤٧ مكتبة وهبة ط أولى ٢٠١٤م.

(عليكم بهذا القرآن)؛ لأن الله أعطى النبي القرآن والسنة فلا يحق لمسلم الاكتفاء بالقرآن وحده، وفي سبيل نقض دعوى هذا البطر الكسلان جاء الجزء التالي من الحديث :(ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ...) ليبين النبي – ﷺ – أن له حق التشريع ومن ثم تظهر حماقة هذا الدعي وضعف وخوار دعواه .

و(يوشك) فعل من أفعال المقاربة، وهي أفعال ناقصة تعمل عمل (كان) وتدل على قرب زمن وقوع الخبر من الاسم وقوعا كبيرا[١] وهذا يدل على أن ما يحذر منه النبي – ﷺ – لم يقع بعد وإنما قرب زمن وقوعه وقد كان، فهذا الحديث دليل من أدلة النبوة وغصة في حلوق منكري السنة على مر العصور والأزمان .

وقد جاءت روايات أخرى لهذا الفعل وهي :

- " يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ....." [٢]
- " ليوشك الرجل متكئا....." [٣]
- " لا ألفين أحدكم متكئا ....."وهي رواية لأبي داود عن عبدالله بن أبي رافع عن أبيه[٤]
- " أَلاَ هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ ....." [٥]

ففي قوله (يوشك الرجل) إخبار عن قرب خروج أصحاب هذه الفرية، ثم ترقى إلى القسم في قوله : (ليوشك الرجل) تأكيدا منه – ﷺ– على قرب زمن الخبر وهذا التأكيد ناظر إلى غرابة الخبر فالصحابة – رضي الله عنهم – كان عنوان حياتهم مع كلام رسول الله – ﷺ– سمعنا وأطعنا، ثم يخبرهم النبي

(١) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ج١ ص ٢٩٨وشرح الأشموني ج١ ص ٢٧٣.
(٢) سنن ابن ماجة ج ١ ص ٩ رقم ١٢.
(٣) سنن الدرامي ج١ ص ٤٧٣ رقم ٦٠٦
(٤) سنن أبي داود ج ٤ ص ٢٠٠ رقم ٤٦٠٥
(٥) سنن الترمذي ج٤ ص ٣٣٥ رقم ٢٦٦٤.

ﷺ – بقرب خروج من ينكر السنة ولا يقيم لها شأنا، ولك أن تتخيل كيف كان وقع هذا الكلام على قلوب الصحابة الكرام بل وقعه على أي قلب يحب رسول الله – ﷺ –؛ فكان هذا القسم الذي يؤنس به نفوس الصحابة ويهيئهم للتعامل مع هذا الخبر المؤلم .

وإذا كانت الأفعال السابقة قد دلت على قرب وقوع الخبر ففي قوله: (لا ألفين) مذاق آخر دل على النهي المؤكد و(لا ألفين) صيغة المتكلم المؤكدة بالنون الثقيلة، من ألفيت الشيء وجدته وظاهره نهى النبي – ﷺ – نفسه عن أن يجدهم على هذه الحالة، والمراد نهيهم عن أن يكونوا على

هذه الحالة وهُوَ كَقَوْلِكَ لَا أُرِيَنَّكِ هَاهُنَا نَهَى نَفْسَهُ أَنْ تَرَاهُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ، وَالْمُرَادُ نَهْيُهُمْ عَنْ تِلْكَ الْحَالَةِ عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ[1]

فالنبي – ﷺ – ينهى نفسه عن أن يلقاهم على هذا الأمر الشنيع من إنكار السنة، هذا هو المعنى الظاهر لقوله (لا ألفين أحدكم ...) ولكن ليس هذا هو المقصود فالقصد متوجه إلى نهيهم عن رفض السنة، وصدور هذا القول منهم، وذلك من باب الكناية حيث عبر باللازم وهو نهي النبي نفسه أن يريهم على هذه الحالة وأراد الملزوم وهو نهي هؤلاء الأدعياء عن أن يكونوا على هذه الحالة . وهذا أبلغ في باب النهي؛ (لأنه جمع في النهي بين إيقاعه على المتكلم من طريق الصريح؛ وعلى المخاطب من طريق الكناية والمعنى واللزوم.)[2]

أما رواية (أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ...) فـ"**عسى**" **فعل** من أفعال المقاربة، وتدل على رجاء المتكلم وأمله

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح.الملا علي القاري ج ١. ص ٢٤٥ دار الفكر. بيروت. ط. الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه .ج ١ ص ١٠دار الجيل – بيروت، الطبعة – الثانية. وينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح. الملا علي القاري ج١ ص ٢٤٥ ط دار الفكر. بيروت – لبنان ط الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م

وطمعه في وقوع الخبر وترقب حصوله، إذا كان شيئا مرغوبا فيه، وتدل على الإشفاق والخوف من وقوعه إذا كان أمرا مكروها[1] كما هو الحال هنا فالنبي - ﷺ - يشفق على أمته ويخاف عليها من هذه الفتنة التي أوشكت أن تقع .

واسم (يوشك) (رجل) جاء نكرة لأنه نكرة بين أهل العلم لا قيمة له ولا وزن، يأكل ويشرب ويتطاول، ولا ذكر له إلا بالتطاول على ثوابت الدين، وكم رأينا أقزاما يتصدرون المشهد وليس في جعبتهم إلا الطعن في الدين، والنكرة فيها معنى التحقير، " والمرأة مثل الرجل في ذلك، ولكن ذكر الرجال على سبيل التغليب؛ لأن الخطاب لا يكون إلا معهم في الغالب، والأصل هو التساوي بين الرجال والنساء، إلا أن يأتي شيء يدل على تخصيص أحدهما دون الآخر "[2]

ويصف النبي - ﷺ - هذا الرجل بأنه (شبعان على أريكته) وقد أخذت أتأمل هذا الوصف ودلالته وعلاقته برفض السنة حتى وجدت المناوي يوضح خطورة الإسراف في الطعام الذي استهان به الكثيرون، يقول :

" وهو – أي الشبع – مذموم طبا وشرعا، كيف وهو يقرب الشيطان ويهيّج النفس إلى الطغيان، والجوع يضيق مجاري الشيطان، ويكسر سطوة النفس، فيندفع شرهما، ومن الشبع تنشأ شدة الشبق إلى المنكوحات، ثم يتبعها شدة الرغبة إلى الجاه والمال اللذين هما الوسيلة إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ثم يتبع ذلك استكثار المال والجاه وأنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثم

(١) ينظر : ضياء السالك إلى أوضح المسالك . د / محمد عبد العزيز النجارج ١ ص ٢٧٤ مؤسسة الرسالة. ط الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

(٢) شرح سنن أبي داود الشيخ / عبد المحسن العباد ج ٢٦ ص ٢٤٨

يُفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء والبطر والأشر، وذلك مُفضٍ إلى الجوع في القيامة وعدم السلامة إلا من رحم ربك [١]

فهذا الوصف يبين أننا أمام عقل بليد يعيش ليأكل فهو كالأنعام بل أضل، وإمعانا في بلادته ودعته وخموله جاء قوله: (على أريكته) وفي رواية الترمذي (متكئا على أريكته) فلاهمة له ولا عمل له بل الدعة والخمول وسوء الأدب وإضافة (الأريكة) إلى ضمير هذا الشبعان ينبيء بمعان كثيرة فهو ملازم لها لا ينفك عنها، حتى أنها أصبحت سمة بارزة في شخصيته يشبع ويتكيء على أريكته شأن البقر والجاموس يأكل ويرتع وينام في مكانه واستكمالا لصورته القميئة جاء قوله – ﷺ – : (يأتيه الأمر من أمري) في رواية أبي داود، وفي رواية الترمذي : (يبلغه الحديث عني) فهو في كل أحواله لا يرحل في طلب علم ولا يحصل ولا يجتهد ولا يبحث عن حق ولا يتحرى قبل أن يتطاول ويتحاذق بل يأتي إلي أريكته علم رسول الله ﷺ ويرده؛ لأنه غير مهتم به ولا يؤمن به أصلا، فهذه الألفاظ : شبعان –متكيء على أريكته – يبلغه الحديث عني، رسمت صورة جسمانية ونفسية لهذا النموذج البطر ورجل هذا حاله لن يكون إلا خطبا ولن نسمع منه إلا عيا وهو ما حكته جملة الخبر التي جاءت بعد تشوق إليها فكل ألفاظ الحديث تتحدر إليها، لأنها سبب الحديث وما ذكر الحديث إلا من أجلها .

فماذا قال هذا الدعي: كما جاء على لسان الصادق المصدوق ؟:

(يقول: عليكم بهذا القرآن .....)

والحديث كله رد على هذه الجملة ؛ لأن البيان النبوي قائم على رد هذا القول وإسقاطه والتحذير من أصحابه، والغالب في خبر (يوشك) أن يأتي مقترنا ب(أن) المصدرية[٢] إلا أنه جاء هنا مجردا منها ، ولعل السر البلاغي

(١) فيض القدير العلامة المناوي. ج ٥ ص ٨.

(٢) ينظر : شرح التصريح على التوضيح الشيخ /خالد الأزهري ج ١ ص ٢٨٢.دار الكتب العلمية –بيروت– لبنان ط الأولى ١٤٢١ هـ– ٢٠٠٠م.

في حذفها هو تقريب وقوع هذا القول من الزمن الحال وقد أفدت ذلك من قولهم: "وكاد وكرب بالعكس – أي عكس عسى وأوشك – فيكون الغالب في خبرهما التجرد من "أن"؛ لأنهما يدلان على شدة مقاربة الفعل ومداومته، وذلك يقرب من الشروع في الفعل والأخذ فيه، فلم يناسب خبرهما أن يقترن بـ"أن" غالبًا"[1] فحذف (أن) مع خبر (يوشك) أشعر بسرعة وقرب وقوع الحدث والأخذ فيه؛ لأن (أن) تمخض الفعل للاستقبال وحذفها يقرب زمن الاستقبال من زمن الحال، وقد كان فما لبث أن خرج الخوارج والرافضة يشككون في ثوابت الدين والفائدة من الإخبار بقرب الوقوع هو أخذ الأهبة والاستعداد التام لدحض افتراءات هؤلاء الجهلة الحقدة.

وقد جاء فعل القول مضارعا؛ لأنه يدل على الاستقبال فالرسول يخبر بما سيقع فالحديث دليل من أدلة النبوة، كما أنه لا يخلو من دلالة على استحضار الحدث فقد رأى المتلقي القائل وهو في أريكته متكئا قد أقعدته تخمة الطعام يقول: (عليكم بهذا القرآن)، وهذه الجملة صيغت بإحكام فقوله: (عليكم) اسم فعل بمعنى الزموا، أي الزموا هذا القرآن ولا تتعدوه إلى غيره فالأسلوب أسلوب إغراء، وإمعانا في التحديد والتدقيق لم يقل : عليكم بالقرآن وكفى، وإنما أشار إليه لتمييز المغرى به أكمل تمييز حتى لا يقبل كلامه أي تأويل وهذه الدعوى من أخبث الدعوات؛ إذ يموهون على الناس صدق التزامهم بالإسلام وأن القرآن فيه الكفاية عن كل شيء وذلك طريق من طرق أعداء الإسلام لهدم الدين كله؛ لأنهم لو كانوا حقا مؤمنين بالقرآن لآمنوا بالسنة.

وفي رواية الترمذي أخذ مقول القول صيغة أخرى (بيننا وبينكم كتاب الله) وأول ما لا حظته في هذه الرواية صيغة الجمع، وذلك ينبيء أن هؤلاء سيكونون كثرا وأنهم قد يأخذون شكل جماعات أو هيئات وهذا ما حدث فنشأت طائفة تسمي نفسها القرآنيين، والقرآن الكريم منهم براء .

(١) السابق ج١ ص ٢٨٤.

وهذه الرواية أكثر تبجحا وفرية فالرواية الأم محل الدراسة توقفت عند الأمر بالالتزام بالقرآن الكريم ، أما هذه الرواية (بيننا وبينكم كتاب الله) تعدت إلى تحدي أصحاب الحق وطلب الاحتكام الى كتاب الله – تعالى – وهي دعوة ظاهرها فيه الرحمة والإنصاف وباطنها فيه الهدم لأركان الإسلام فأي جرأة هذي وأي خبث ذاك ؟! وهذا هو شأن الحقدة الفجرة يحركهم حقد وكره للإسلام فيفجرون في خصومتهم، وإمعانا في إلباس الباطل والزيف ثوب الحق والإنصاف كان هذا التوضيح لمقولتهم السابقة : **(فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه)**

وقد جاء أسلوبا الشرط ليخصصا الإجمال في قوله : (عليكم بهذا القرآن) لأن القرآن ليس مقصورا على التحليل والتحريم، وإنما اقتصروا على ذلك ليسلم لهم زعمهم وخبث اعتقادهم؛ فيتجنبوا الآيات التي أمرت بطاعة الرسول – ﷺ – ووجوب اتباعه – ﷺ –، وجاء تقديم أسلوب الشرط الخاص بالتحليل؛ لأن الأصل في الأشياء الحل لا الحرمة، وقد لبس الشيطان هنا ثياب الواعظين ليستميل قلوب الضعفة والمذبذبين، ومجئ " الفاء " رابطة بين معاقد الكلام للإشارة إلى أن أسلوبي الشرط مسببان عما قبلهما مع إفادة الترتيب والتعقيب، فهو يسارع ولا يتمهل في تحديد المراد من قوله: (عليكم بهذا القرآن) وفي رواية الدارمي بإسقاط الفاء: (ما وجدنا فيه من حلال استحللناه) وحذف الفاء دل على أن ذلك القول واقع منه على سبيل العادة ، فهو دائم الرد على أحاديث النبي – ﷺ – بهذا الكلام وأن هذه الجملة دائمة التلبس بقوله الأول : (بيننا وبينكم كتاب الله) فلا حاجة إلى رابط .

و"ما" الشرطية تأتي للدلالة على شئ غير عاقل [1]، والشرط بـ "ما" هنا ناظر إلى استقصاء كل ما هو حلال في القرآن الكريم وهذا من التمويه على

(١) معاني الحروف. الرماني صـ٨٦، والجنى الداني المرادي. صـ٣٣٦، والأصول في النحو لابن السراج جـ٢ صـ١٨٣٠.

الناس وإمعانا في إظهار الإنصاف والحرص على القرآن الكريم، ويتعانق مع هذا الإمعان تقديم الجار والمجرور(فيه) الذي أفاد حصر التحليل على ما هو في القرآن فقط وهو قصر إفراد .

ومجيء (من) البيانية داخلة على النكرة (حلال) أظهر مدى حرصهم على تحري الحلال في كل آيات القرآن الكريم فبدا أمرهم وكأنهم حريصون على دين الله ولا يقصرون فيه .

وجاءت جملة جواب الشرط " فأحلوه " لتظهر سوء أدبهم مع الله – تعالى – ؛ لأن العبد لا يحلل ولا يحرم وهذا المعنى يكشف ما في قلوبهم من كونهم لا يقدرون الله – سبحانه – حق قدره، وأنهم عبدة لأهوائهم التي تحلل وتحرم، ورواية (استحللناه) تبين مدى ثقل هذا الحلال على قلوبهم مع أنهم ألزموا نفوسهم به وهذا يكشف زيف هذا الالتزام ، وقصرهم التحليل على ما في القرآن الكريم غباء شديد؛ لأن القرآن الكريم ليس فيه كل الحرام فضلا عن أن يذكر فيه كل الحلال .

وقل مثل ذلك في أسلوب الشرط الثاني "وما وجدتم فيه من حرام فحرموه" ولو جاء الأسلوب على نسقه لقيل : وما وجدتم فيه من حرام فاجتنبوه، مثلا لكن سوء الأدب مع الله – تعالى – هو ما يجيش ويسكن في صدورهم فظهر ذلك على ألسنتهم .

وقد جاء هذا الأسوب معطوفا على ما قبله بـ " الواو " للتوسط بين الكمالين مع وجود الجامع بين الجملتين وهو ما بين الجملتين من تقابل .

وقد أظهرت المقابلة حرص هؤلاء على تقوية قضيتهم ومتانة عرضها فهم حريصون على الحلال والحرام كما يريدون هم لا كما يريد الإسلام .

و هكذا عرض النبي – ﷺ – فتنتهم ورد – ﷺ – عليها بطريقتين :

الأولى : بإثبات إيتاء الله – ﷻ – لنبيه – ﷺ – الكتاب والسنة .

الثانية : بمباشرة التحريم منه – ﷺ – وذكر نماذج مماحرمه النبي – ﷺ – مما لم يرد به نص في القرآن الكريم؛ ولذلك أتبع النبي – ﷺ – كلام هذا الدعي بذكر أمور حرمها .

قال – ﷺ – :

(ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليِّ، ولا كلِّ ذي نابٍ من السَّبُعِ، ولا لُقَطةِ معاهَدٍ، إلَّا أن يستَغني عَنها صاحبُها)

وفي سنن ابن ماجه جاءت رواية أخرى :

(ألا وإن ماحرم رسول الله – ﷺ – مثل ما حرم الله)

ويلاحظ على هذه الرواية أمور منها :

١– ورود (ألا) التنبيهية وتكرارها في كل روايات الحديث وهذا فيه توبيخ وتقريع لهؤلاء المنكرين لسنته – ﷺ – كما أن المتمثل لحال النبي – ﷺ – وهو يلقي هذا البيان النبوي يتبين له غضب النبي – ﷺ – وانفعاله النابع من مسؤليته الدعوية تجاه الرسالة التي تحمل أمانتها، فالنبي – صلى الله عليه وسلم – ما غضب لنفسه قط، و لكن إذا انتُهِك دين الله – تعالى – انتصر له ودافع عنه وحذر وانتفض .

٢– مجي ء (إنَّ) نشر التأكيد على الصورة التشبيهية فتأكدت المماثلة .

٣– –أن النبي أخبر بأن تحريمه – ﷺ – مثل تحريم الله– عز وجل – في وجوب التسليم والإذعان وذلك ما حققته أداة التشبيه (مثل) التي تفيد تمام المماثلة.

٤– عدل الأسلوب من المضمر إلى المظهر فلم يقل :(وإن ما حرمت مثل ما حرم الله) بل جاء التعبير بالمظهر وأي مظهر إنه المظهر الذي يوجب الاتباع والإذعان والخضوع والطاعة وهو قوله : (رسول الله) فسنته وحي من الله –عز وجل – فمن عظم الله وصدق، كان عليه أن يعظم النبي الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق .

٥ – في الحديث اكتفاء بلاغي حيث اقتصر البيان النبوي على التحريم ؛ لأن الأصل في الأشياء الإباحة بخلاف الرجل الدعي الذي ذكر الحرام والحلال .

أما الرواية التي معنا فقد باشر فيها النبي – ﷺ – التحريم وذكر أشياء حرمها ولم يجر لها ذكر في القرآن الكريم، وقد ذكرها النبي – ﷺ – على سبيل التمثيل لا الحصر فقال : (ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي)

ونفي الحل من صيغ التحريم وأوثر النفي هنا ولم يأت (لا تأكلوا لحم الحمار الأهلي) بصيغة النهي لأن النفي يدل على البت في التحريم " قطعا للتأويل، كي لا يوسوس الشيطان بأنه نهي ترشيدي تهذيبي، لا نهي للتحريم القطعي، فقد أحكم بهذه العبارة " لا يحل لكم "الحكم بعدم الحل"[١]

كما أن هذه الصيغة تدل على أن لحم الحمار كان يؤكل دون أي مؤاخذة فتأتي هذه الصيغة لتزيل ما كان متأصلا حليته في نفوسهم، ويدل على ذلك ما رواه سنان بن سلمة، عن أبيه (أن النبى – (ﷺ) – مر يوم خيبر بقدور فيها الحمر حمر الناس فأمر بها فأكفئت. وذكر أنس فى حديثه أن النبى (ﷺ) قال لهم: (أكفئوها،_أي القدور _ لأنها رجس)[٢] فقد طبخها الصحابة لأنهم لا يرون فيها بأسا، فأمر النبي – ﷺ – بإكفاء قدورها تخلصا منها بالكلية ؛ لأنها رجس وذلك يوضح مناسبة تحريم لحم الحمر الأهلية في هذا الحديث، وهذه الصيغة (لا يحل) هي الأنسب لمقام الحديث؛ لأن الغرض الأصيل من ذكر هذه المحرمات هو إثبات استقلال النبي – ﷺ – بالتشريع وأن منه التحريم والتحليل فاستخدام لفظ (لا يحل) أنسب لكل هذه المعاني .

(١) دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين دراسة منهجية تحليلية د / محمود توفيق سعد ص ٣١٥ مكتبة وهبة ط أولى ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م.

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج ٥ ص٤٢٥مكتبة الرشد – الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م.

وقوله (لكم) يفتح القلوب لتلقي هذا الحكم التشريعي بالقبول فما كان هذا التحريم إلا من أجلكم ومصلحتكم، ولذلك قدم الجار والمجرور على الفاعل (لحم الحمار الأهلي) لأنه أوثق صلة بغرض الكلام، كما أن قوله (لكم) أكسب البيان النبوي ديمومة البلاغ إلى قيام الساعة، لأن (لكم)خطاب يدور مع المسلمين في كل عصر ومصر.

وفي إسناد الفعل (لايحل) إلى (لحم الحمار) دون أن يقال " لا أحل لكم " أو لا يحل الله لكم " إشارة إلى أن لحم الحمارفي نفسه غير قابل لأن يحل لكم؛ لأنه لا يليق بكم أكله فهو مع تحريم رسول الله – ﷺ – للحم الحمار غير قابل في نفسه أن يكون حلا لكم وفي هذا من عظيم التنفير ما فيه(١)

وقوله: (الأهلي) صفة لتخصيص الحكم وتحديده يخرج بها الحمار الوحشي، ولنا أن نستأنس بما ذكره العلماء من أضرار أكل لحم الحمار الأهلي ليزداد الذين آمنوا إيمانا وليرجع المعادون للإسلام وهم خاسئون حاسرون، وقد ذكر أهل العلم أن التحريم راجع للحفاظ على الإنسان من أن يتسرب إليه بعض خصائص تلك الحيوانات؛ فالحمار الوحشي يسعى على نفسه، وحمايته لنفسه، ويأنف الضيم، ولا يخضع لنوع من الذلة، فلما استأنس نوع من الحمر وأصبح إنسياً أصبح ينتظر العلف من صاحبه، ويحرسه صاحبه ويستذله، حتى إن الطفل الصغير ليضربه ويحمل عليه وينقاد له وهو صبور، ويضرب به المثل في الصبر، وفيه طبع اللآمة؛ لأنه إذا عرف أن الذي يقوده طفل صغير تلاءم وتعاجز وتناوم وتقلب في التراب، وإذا وجد الجد ممن هو معه شمر ونشط وخاف، ففيه الذلة واللآمة، وأصبح يضرب به المثل في البلادة؛.

(١) أفدت هذا التحليل من كلام الدكتور محمود توفيق سعد في معرض تحليله لقوله تعالى :"لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها... الآية ١٩ النساء. ينظر : دلالة الألفاظ عند الأصوليين ص ٣١٥.

فالحمر الأهلية حرمت لما لها من صفات ليست موجودة في الحمر الوحشية.[١]

وأثبت الطب الحديث أن تناول لحوم الحمير يؤدى إلى مرور مواد بروتينية تسبب تلف أجزاء من المخ وتلف أعضاء الكبد والكلى والبنكرياس وانتقال الأمراض والميكروبات المسببة لموت الحيوان إلى الإنسان الذي يتناول لحومه[٢] والمسلم الحق لا يتعلق بأسباب وإنما يتعلق بالإسلام أمرا ونهيا فلا يملك إلا أن يقول : سمعنا وأطعنا .

ويثني النبي – ﷺ – بتحريم السباع فيقول : **(ولا كل ذي ناب من السباع)**

و(الواو) تشرك بين المعطوف والمعطوف عليه في العامل ومعناه أي : ولا يحل لكم أكل كل ذي ناب من السباع، والناب هي السِّنُّ التي خلف الرَّباعِيَةِ،[٣] والسَّبُعُ يقع على ما له ناب من السِّباعِ ويَعْدُو على الناس والدوابّ فيفترسها مثل الأَسد والذِّئْب والنَّمِر والفَهْد وما أَشبهها[٤]

وهي جملة موجزة أفصحت عن حكم شرعي بإيجاز رائع حيث داخل الجملة إيجاز بالحذف وإيجاز بالقصر: أما إيجاز الحذف فنراه في حذف المضاف (أكل) إذ التقدير: ولا أكل كل ذي ناب من السباع ويعضد ذلك رواية مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله – ﷺ – قال: «**كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ فَأَكْلُهُ حَرَامٌ**» [٥] لكن رواية الحذف تضيف إلى النهي عن أكل السباع معنى آخر معتبرا شرعا وهو أن المسلم عليه أن يبتعد عن السباع ولا يقترب منها حفاظا على نفسه، فكأن النهي راجع بالكلية إلى السباع مأكلا و اقترابا واستخداما.

---

(١) ينظر: شرح بلوغ المرام الشيخ/ عطية سالم ج ٣ ص ١٦٩(موقع الشبكة الإسلامية)
(٢) ينظر: أضرار الحمير على الشبكة العنكبوتية.
(٣) لسان العرب (نيب)
(٤) السابق (سبع)
(٥) صحيح مسلم ج٢ ص ١٥٣٣.

وأما إيجاز القصر فلنا أن نراجع شراح الحديث وبيانهم لمعنى (السباع) فنراهم يعددون أسماءها وأنها تصدق على الأسد والنمر والذئب والفهد وغيرها، فأغنت كلمة (السباع) عن كل هذا فهذه بلاغة النبوة التي لا ينطق صاحبها عن هوى بل ينطق عن وحي أوحاه له ربه – سبحانه– وحباه به .

وفي التعبير بـ(ذي) في قوله – ﷺ – : (ذي ناب) أبلغ من لو قيل: (صاحب ناب) لأن (ذي) تدل على شدة الملازمة وفيها معنى التمكن ولما كان الناب خلقة في السباع ناسبه (ذي)؛ ولذلك ذكر أهل العلم أن كون السبع له ناب قيد في التحريم وأن ما كان من السباع بغير ناب فإنه لا يحرم[١] فالناب هو مناط التحريم ويرشدنا إلى الحكمة من تحريم السباع إذ هو سلاحه في الافتراس والفتك، والإنسان إذا تغذى بهذا النوع من الطعام فإنه يكتسب طبيعة منه فيكون محبًا للعدوان على الغير فلذلك منع، ولهذا قال العلماء في الرضاع : لا ينبغي أن تسترضع امرأة حمقاء أو سيئة الخلق؛ لأن ذلك يؤثر في الرضيع، كذلك أيضًا الإنسان إذا أكل من هذه السباع فإن ذلك يؤثر في طباعه.[٢]

وأثبت العلم التجريبي الحديث ذلك، فقد لوحظ على الشعوب آكلات لحوم الجوارح أو غيرها من اللحوم التي حرم الإسلام أكلها أنها تصاب بنوع من الشراسة والميل إلى العنف ولو بدون سبب إلا الرغبة في سفك الدماء، ولقد تأكدت الدراسات والبحوث من هذه الظاهرة على القبائل المتخلفة التي تستمرئ أكل مثل تلك اللحوم إلى حد أن بعضها يصاب بالضراوة فيأكل لحوم البشر، ومما هو جدير بالذكر أن آكلات اللحوم تعرف علمياً بأنها ذات الناب التي

(١) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام الشيخ محمد بن صالح العثيمين ج ٦ ص ٦ المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع. الرياض ط الأولى، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦ م.

(٢) السابق والصفحة

أشارت إليها الأحاديث الشريفة؛ لأن لها أربعة أنياب كبيرة في الفك العلوي والسفلي[1] فصلى الله وسلم علي معلم الناس الخير .

ويختتم النص النبوي المحرمات بذكر حرمة أخذ لقطة المعاهد فقال – ﷺ :

(ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها)

وقد جاء ترتيب هذه المحرمات على نسق بديع فبديء بالحمار الأهلي ؛ لأن المخاطبين كانوا في معرض تناوله وأكله، كما أن الحمار في متناول الناس يركبونه ويستخدمونه فالبدأ بتحريمه أولى، وثني بالسباع فهي كالحمار من فصيلة الحيوان إلا أن الوصول إليها ليس يسيرا فهي تسكن الآجام والغابات والصحراء .

<u>والسؤال الذي يلح على عقلي ما فائدة تحريم اللقطة بعد تحريم مأكول غير طيب ؟</u>

أقول إن النبي – ﷺ – جمع في تحريمه بين ما هو شهوة للبطن وما هو شهوة للنفس وبدأ بشهوة البطن؛ لأن الجسد الذي يأكل طيبا ويتحرى الحلال والحرام في مأكله ومشربه هذا الجسد هو المؤهل لحمل التكليفات وأداء الأمانات، ولذلك قدم الله – ﷻ – الأكل من الطيبات على العمل الصالح في القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ ﴾ المؤمنون:٥١ فالنفس التي تستمريء أكل الحمار والسباع ستكون نفسا خبيثة حيوانية لا تعرف قيمة رد الأمانات إلى أصحابها .

وتكرار (لا) النافية مع كل محرم ينشر تأكيد الحرمة في نفوس المخاطبين خاصة أنها كانت مباحة لهم، كما أن الامتداد الصوتي في هذه الأداة تعانق مع الامتداد الصوتي في " ألا" التنبيهية ليظهر شدة انفعال النبي – ﷺ– في معالجته لهذا المنكر، فبدا كأنه منذرُ جيشٍ يقول : صبَّحَكم ومسّاكم، فلم يكن

(١) ينظر : الإعجاز العلمي في الإسلام: السنة النبوية د / محمد كامل عبدالصمد ص ٨٣ الدار المصرية اللبنانية. ط ٢٠٠١م.

الهدوء هو المرفرف على أجزاء الحديث، ومنعطفاته بل الانفعال والغضب؛ لأن الأمر جلل وفتنة تهدم الدين فلم لا يغضب النبي – ﷺ – ويكون كلامه حاسما فاصلا قاصدا مستأصلا لهذا المرض ؟!.

واللقطة بِضَم اللَّام وَفتح الْقَاف وإسكانها لُغَة الشَّيْء الْمُلْتَقط وَشرعا مَا وجد من حق مُحْتَرَم غير مُحْتَرز لَا يعرف الْوَاجِد مُسْتَحقّ[١]

و(المعاهد) هو الكافر بينه وبين المسلمين عهد بأمان في تجارة، أو رسالة، وفي معناه الذمي.[٢] ونص على لقطة المعاهد؛ تنبيها على حرمتها " لأن في لُقْطَتِهِ مَظِنَّة الاستحلال لكُفْره "[٣] وهذا هو إسلامنا الحنيف رسالة السلام من رب السلام على رسول المحبة والسلام ليعيش الناس كل الناس في سلام وأمان، وإذا كانت لقطة المعاهد محرمة فمن باب أولى ماله ودمه وقد نص على ذلك رسول الله – ﷺ – قال : (من قتل معاهدا أو ذميا لم يرح رائحة الجنة)[٤]

فلا تباح لقطته إلا بشرط الاستغناء عنها وهو ما جاء في قوله ﷺ: **(إلا أن يستغني عنها صاحبها)**

وهذا الاستغناء إما لزهادة اللقطة أو لتنازل صاحبها عنها[٥]

والتنصيص على المعاهد لا يعني أن الحكم يختص به، فإذا كان هذا في حق المعاهد الذي بقي في بلاد المسلمين فهو في حق المسلم أولى وأثبت، وقد

---

(١) لسان العرب (لقط).

(٢) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح حسام الدين الرحماني المباركفوري ج١ ص ٣٦٠ إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – الهند ط الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤.

(٣) بذل المجهود في حل سنن أبي داود الشيخ خليل السهانفوري ج ١٣ ص ١٥ نشر مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للتراث. الهند ط أولى ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م.

(٤) صحيح البخاري ج ٣ ص ١١٥٤.

(٥) فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام محمد بن صالح العثيمين ج٤ ص ٣٤٩.

جاءت النصوص عامة في ذلك، فلا يحل للإنسان أن يتملك اللقطة في الحال إلا إذا عرف أن صاحبها قد تركها مستغنياً عنها، أو كانت من الأشياء التافهة التي لا يؤبه ولا يهتم بها، وإلا فإن الأصل هو التعريف لها(١)

ولذلك كان مجيء الفاعل (صاحب) وإضافته إلى ضمير اللقطة مشعرا بعلية الحكم ويقطع النفس عن تملكها لأن لها صاحبا ومالكا هو أولى بها منك فمع كون المال ليس في حرزصاحبه إلا أن ذلك لا يسلب عنها صفة التملك في الحال وإنما عليه أن يعرفها ويتبع فيها أمر الإسلام .

ويختم النبي – ﷺ – بيانه بهذا الأدب النبوي :

"**ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه، فإن لَم يُقْرُوه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاه** "

وقد أراد النبي – ﷺ – أن يختم هذا البيان النبوي بحديث عن أدب من آداب الإسلام وهو أدب الضيافة ليكتمل الرد الموجع على هذا الأفاك؛ فالنبي – ﷺ – يشرع ويحلل ويحرم ويوصي المسلمين بمكارم الأخلاق وحسن معاملة الضيفان.

وقد سلك المعنى هنا مسلكا مغايرا إذ سيق في أسلوب شرطي، فقد خرج الكلام من سياق المحرمات "حيث لم يقل: لا يحل للمضيف أن لا يكرم ضيفه، وأبرزه في معرض الشرط والجزاء دلالة على أن ذلك ليس بمحرم، ولكنه خارج عن سمة أهل المروءة، وهدى أهل الإيمان، وليتأهل فاعله أن يخذل، ويستهجن فعله، ويجازى بكل قبيح."(٢)

وقد صيغ هذا الأدب النبوي عن طريق أسلوب الشرط، **وأداة الشرط** " **من** " **وهي كما يقول ابن هشام : في قوة كلمتين :**

---

(١) شرح سنن أبي داود الشيخ عبد المحسن العباد ج ٢٦ ص ٢٤٩

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ج ٢ ص ٦٣١ ت. د. عبد الحميد هنداوي مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض) الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

الأولى : الدلالة على الأناسي بحكم الوضع، فهي شاملة لكل أفراد جنس المخاطبين رجالا ونساء، والحديث عن أدب نبوي، يخاطب به كل أفراد المسلمين مهما كان حالهم ووضعهم.

الثانية : الدلالة على الشرط لتضمنها معنى "إن"[١].

ويذكر (ابن يعيش) أنّ لفظها واحد للمفرد والمثنى والجمع وللمذكر والمؤنث، فيقول: ((أتوا باسم يتضمن جميع ذلك وهو "مَنْ" فأستغني به عن تعداد الأسماء كلها))[٢].

وعندما يسمع المتلقي جملة الشرط " نزل بقوم "، يثير لدى المتلقي إحساسا بمعرفة ماذا عليه تجاه هذا النازل، وهذا الإحساس يوقظ عند المتلقي مدارك حسه فيجعلها متأهبة لسماع الجواب وهو قوله – ﷺ –: "فعليهم أن يقروه " فيتمكن في عقله وسويداء قلبه.

وقد جاء الجواب مقترنا بالفاء وسبب اقتران الجواب بالأداة الرابطة (الفاء) هو فقد المناسبة اللفظية بين فعل الشرط وجوابه، فهذه (الفاء) تجعل الجواب مناسباً لفظياً لفعل الشرط[٣]

وقوله (فعليهم أن يقروه) أي سنة واستحبابا لا فرضا وإيجابا، فإن قرى الضيف غير واجب قطعا، لحديث الأعرابي، وهو قوله: ((هل على غيرهن يا رسول الله؟ فقال ﷺ: لا، إلا أن تطوع))[٤]

وقيل: واجب؛ لأنَّ كلمة (على) للوجوب، وهذا كان في بدء الإسلام؛ فإنَّه – عليه الصلاة والسلام كان يبعث الجيوش إلى الغزو، وكانوا يمرُّون في طريقهم

---

(١) ينظر : رسالة المباحث المرضية. لابن هشام المصري. صـ٣٤ وما بعدها. ت.د / مازن مبارك. دار ابن كثير. ط أولى ١٩٨٧م.

(٢) شرح المفصل ابن يعيش: ١١/٤.ت د/ إميل بديع يعقوب دا رالكتب العلمية بيروت – لبنان.

(٣) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ١١٠/٤

(٤) شرح الطيبي ج٢ ص ٦٣٠

بأحياء العرب، وليس هناك سوق يشترون الطعام، ولا معهم زاد، فأوجب عليهم ضيافتهم؛ لئلا ينقطعوا عن الغزو(١).

وأرى أن الأمر ليس للإيجاب بل هوللاستحباب إلا أن مجيء (على) أوحى بحب النبي – ﷺ – لهذا الأدب ورغبته الحثيثة في التزام الأمة بهذا الخلق الجميل؛ لأنه سلوك إنساني والتزام فطري لا يقف عند جنس أولون أو دين يدل على سماحة النفس وكرم الأخلاق، ولعل فتح خيبر كان له أثر في الدعوة إلى الكرم على هذا النحو فاليهود قوم جبلوا على البخل واكتناز المال فلزم التنبيه على كرم النفس والبذل والعطاء ، ولأن عدم إكرام الضيف ناشيء من البخل وحب المال فعومل بنقيض قصده وذلك في قوله: **(فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه)**

أي فله أن يتبعهم ويجازيهم من صنيعهم بأن يأخذ من مالهم مثل قراه، يقال: أعقبه بطاعته إذا جازاه. (٢)

والفاء تدل على السببية وفيها سرعة المجازاة ومجيء (إن) مناسب أتم المناسبة؛ لأن الشرط غير مقطوع بوقوعه فالمسلم الحق سمح معطاء لن يقصر في إطعام الضيف خاصة بعد هذا التوجيه النبوي (فعليهم أن يقروه) فكان استخدام " إن" مناسبا لأنها دلت على أن عدم إقراء الضيف لن يقع إلا نادرا .

ومعنى (أن يعقبهم) من الإعقاب بأن يتبعهم ويجازيهم من صنيعه يقال: أعقبه بطاعته إذا جازاه، وقوله : (فله) يجعل هذا الإعقاب له فهو بالخيار إن شاء أخذ به وإن شاء لم يأخذ وقوله : (مثل قراه) بالكسر والقصر لا غير أي فله أن يأخذ منهم عوضاً عما حرموه من الرى، وقيل بأن ذلك محمول على المضطر، فإنه يجب إطعامه إجماعاً. ورد بأن لا دليل على هذا

(١) شرح مصابيح السنة للإمام البغوي الشيخ : محمَّدُ ابن المَلَك ج ١ ص ١٧ إدارة الثقافة الإسلامية الرياض ط الأولى، ١٤٣٣ هـ – ٢٠١٢.

(٢) شرح الطيبي ج٢ ص ٦٣٠

الحمل ولا دعت إليه حاجة، فلا يلتفت إليه[١]. ولذلك رجح الطيبي أن الأمر بأخذه مقدار القرى من مال المنزو ل به كان من جملة العقوبات التي نسخت بوجوب الزكاة،[٢]

وبذلك يكون البيان النبوي قد أدى البلاغ ونصح، وعالج الخطب الجلل، فكان بحق محاجة بيضاء نقية تهدي إلى طريق مستقيم في لفظ بديع وجمل محكمة، ونظم سديد كأنه عقد در منظوم ، يأخذ أوله بآخره حتى كأنه كلمة واحدة، وكل ذلك في تسلسل عقلي استقصى كل المناسبات بين أجزاء البيان النبوي فاستوفى كل أسباب الحسن، وآيات الجمال وكلما زدت كلام رسول الله – ﷺ – نظرا وتأملا، كلما زادك حسنا وجمالا.

وأمر آخر لابد وأن أنبه إليه وهو أن هذا البيان النبوي دليل على عالمية رسالته وأن الرسول – ﷺ – – كما يقول شيخنا أبوموسى – : " تكلم للأجيال كلها في الأزمنة كلها وفي الأمكنة كلها، لأنه عليه السلام بعث لهؤلاء جميعا، ولكل جيل قضاياه ومشاكله؛ ولذلك كان كلامه عليه السلام ممسكا دائما بالجوهر الذي هو أقرب إلى فطرة الأشياء وليس ممسكا بالعرض المتغير" [٣] فصلى الله وسلم على مولاي وسيدي رسول الله – ﷺ – معلم الناس الخير .

❁❁❁❁❁

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح المباركفوري ج١ ص ٢٦٠.

(٢) شرح الطيبي ج٢ ص ٦٣٠.

(٣) شرح أحاديث من صحيح مسلم د / محمدأبوموسى ج٢ ص ٦١٢مكتبة وهبة ط أولى ٢٠١٤م.

الحديث الثاني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ، أَنَّهُمَا قَالَا: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْشُدُكَ اللهَ إِلَّا قَضَيْتَ لِي بِكِتَابِ اللهِ، فَقَالَ الْخَصْمُ الْآخَرُ: وَهُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ نَعَمْ، فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ وَأْذَنْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُلْ»، قَالَ: إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، وَإِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّمَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ، الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»، قَالَ: فَغَدَا عَلَيْهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فَأَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَرُجِمَتْ. (١) **صدق رسول الله ﷺ**

هذا الحديث يحكي واقعة أبطالها الأعراب وهذه الواقعة ترجمة عملية لقوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ النساء:٦٥

فقد جاء أعرابي يحتكم إلى رسول الله - ﷺ - في حد من حدود الله هو " الزنا" -وقى الله المسلمين منه - حيث إن ولده كان أجيرا لأحدهم فوقع على امرأته فأخبره بعض الناس أن على ابنه الرجم فافتداه بمائة شاة، وجارية ثم أخبره أهل العلم أن ابنه -لأنه غير محصن - عليه مائة جلدة والنفي عام وأن الرجم هو حد امرأة الأعرابي؛ لأنها متزوجة فذنبها أشد، فجاء الأعرابي ليستيقن الحكم من رسول الله - ﷺ - فيخبره النبي - ﷺ - بأنه لن يحكم إلا بكتاب الله ويأمر برد ما دفعه وجلد ولده وتغريبه عاما ، ويأمر أنيسا

(١) الحديث في صحيح البخاري. ك الحدود. ب الاعتراف بالزنا ج ٨ ص ١٦٧ رقم ٦٨٢٧وصحيح مسلم . ك الحدود. ب. من اعترف على نفسه بالزنى. ج ٣ ص ١٣٢٤ رقم ١٦٩٧ وسنن النسائي ج ٨ ص ٢٤١ رقم ٥٤١١ وسنن الترمذي ج ٢ ص ٩١ رقم ١٤٣٣ وسنن الدرامي ج٣ ص ١٤٩٢ رقم ٢٢٦٣.ة واللفظ لمسلم.

الأسلمي بالذهاب إلى المرأة حتى يحفظ حقها في الدفاع عن نفسها، وعليها حد الرجم إن أقرت بفعلتها فأقرت فرجمت .

وجه الاستدلال بهذا الحديث على أن السنة وحي من الله :

معنى هذا الحديث، لا يبدو بينه وبين حُجِّيَّة السنة وكون السنة وحيا من الله نسب قراب، حتى إنه ذكر عند أغلب علماء الحديث في كتاب الحدود فلماذا ذكر هذا الحديث هنا ؟ !

وأول ما يجيب على هذا السؤال هو إيراد الإمام البخاري هذا الحديث في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء برسول الله – ﷺ– مع ذكره لهذا الحديث في كتب أخرى منها كتاب الحدود وقد ذكر ابن حجر أن الْبُخَارِيَّ ذكره هُنَا " لِدُخُولِهِ فِي غَرَضِهِ مِنْ أَنَّ السُّنَّةَ يُطْلَقُ عَلَيْهَا كِتَابُ اللَّهِ لِأَنَّهَا بِوَحْيِهِ وَتَقْدِيرِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى) النجم ٣"[(١)] حيث أقسم النبي – ﷺ – بأن يقضي بين الأعراب بكتاب الله، وليس في كتاب الله الرجم ولا التغريب فدل هذا على أن سنة النبي – ﷺ – إذا ثبتت بطريق قطعي، فإنها مساوية لكتاب الله – تعالى – في وجوب العمل بها؛ لأن النبي – ﷺ – ذكر أن قضاءه مبني على كتاب الله– تعالى – مع أنه كان مشتملًا على رجم المرأة ولم يثبت الرجم في كتاب الله صريحًا ولكنه نسبه إلى كتاب الله لما فيه من الأمر باتباع سنة النبي ﷺ[(٢)]

وما قضى به صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم هو حكم الله وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: ٨٠) {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} [الحشر: ٧] فلما أمر باتباعه وطاعته جاز أن يقال لكل حكم حكم به: حكم الله وقضاؤه، إذ ليس في

(١) فتح الباري ابن حجر العسقلاني ج١٣ ص ٢٥٤ دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩،

(٢) ينظر : الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج. الشيخ /محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، ج ١٨ ص ٤٧١ دار المنهاج – مكة المكرمةط الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م

القرآن أن من زنى وافتدى يرد فداؤه، ولا أن عليه نفي سنة مع الجلد ولا أن على الثيب الرجم، وقد أقسم أن يقضي بينهما بكتاب الله وهو صادق(١)

فالنبي – ﷺ – يقدم دليلا عمليا بأن السنة وحي من الله وكل حكم عن رسول الله – ﷺ – إنما هو حكم عن الله – ﷻ– ؛لأن الله سبحانه هو الذي أعطى الرسول – ﷺ – ذلك وهيأه لهذه المكانة وهو سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وقد فطن الصحابة لهذا الأمر فعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يروي "لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ، بَلَغَنِي أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: وَمَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ قَالَتْ: إِنِّي لَأَقْرَأُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ فلَمْ أَجِدْهُ، قَالَ: إِنْ كُنْتِ قَارِئَةً لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧] ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – (٢) وعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ يذكر " أَنَّهُ رَأَى مُحْرِمًا عَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَنَهَى الْمُحْرِمَ، قَالَ: ائْتِنِي بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَنْزِعُ بِهَا ثِيَابِي، فَقَرَأَ عَلَيْهِ {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧](٣) فالرسول – ﷺ– له حق التشريع وكل ما ثبت عنه فهو وحي من الله سبحانه وفهم الصحابة ذلك ولم يتشكك في ذلك أحد منهم بل ردوا كل تشريعه الذي لم يجر له ذكر في القرآن إلى القرآن الكريم ذاته .

التحليل البلاغي: هذا الحديث الشريف له رافدان :

أولهما: كلام الأعراب ومحاورتهم مع النبي – ﷺ – .

---

(١) ينظر : شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك ج ٤ ص ٢٢٧ مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ط الأولى ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ١٤٧.

(٣) جامع بيان العلم وفضله أبوعمر يوسف القرطبي ج ٢ ١١٨٢. دار ابن الجوزي. المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م

ثانيهما : كلام سيدنا رسول الله – ﷺ – .

وقد توقفت مع مطلع رواية البخاري مليا إذ جاء فيها : أخبرني عبيدالله أنه سمع أباهريرة وزيد بن خالد قالا : كنا عند النبي – ﷺ – فقام رجل .....) فقد كشفت هذه العبارة عن حب وملازمة للنبي – ﷺ – وتشرف بالصحبة المباركة .

أما رواية مسلم فقد جاءت بإسناد رواية الحديث إلى أبي هريرة ﷺ وزيد بن خالد الجهني مباشرة : (أَنَّهُمَا قَالَا: إِنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَعْرَابِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنْشُدُكَ اللهَ إِلَّا قَضَيْتَ لِي بِكِتَابِ اللهِ) وقد جاء التمهيد للأحداث دقيقا فقد ذكرا أن الرجل من الأعراب و الأعراب لهم طابعهم وأسلوبهم، فكأن أبا هريرة يمهد بهذا الوصف (من الأعراب) إلى تلمس العذر له في سوء تأدبه مع رسول الله – ﷺ – إذ طلب من رسول الله – ﷺ – الحكم بكتاب الله وهل يقضي رسول الله – ﷺ – بغير ذلك ؟! ولعل المترافعين سألا أن يحكم الرسول – ﷺ – بينهما بحكم الله وهما يعلمان أنه لا يحكم إلا بحكم الله، ليفصل بينهم بالحكم الصرف، لا بالنصائح والترغيب فيما هو الأرفق بهما؛ إذ للحاكم أن يفعل ذلك ولكن برضا الخصمين.(١)

وأمام إصرار الأعرابي وهوالزوج على تحكيم كتاب الله والتعبير عن ذلك بآكد الأساليب وهو أسلوب القصر أصر الآخر على ذلك، يقول الراوي: (فَقَالَ الْخَصْمُ الْآخَرُ: وَهُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ نَعَمْ، فَاقْضِ بَيْنَنَا بِكِتَابِ اللهِ وَأْذَنْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قُلْ»، قَالَ:.....)

ولو جاءت (قال) الأخيرة مثل نظائرها لقيل : (فقال) إلا أن هذا الفعل جاء في كل الروايات بدونها عدا رواية الدارمي جاءت بالفاء هكذا : (فقال رسول الله – ﷺ – : قل فقال .....) وكل ما جاء من المقاولات مفصولا فهو من قبيل الاستئناف البياني ويبين السكاكي بلاغة الفصل في المحاورة من

(١) شرح الطيبي ج٨ ص ٢٥١١

خلال السؤال المقدر فيقول:" وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لا يصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع على موقعه أو لإغنائه أن يسأل أو لئلا يسمع منه شئ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العطف أو غير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك"(١).

ويعلل الإمام عبد القاهر للفصل في المحاورات فيقول: "واعلم أن الذي تراه في التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف..... جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال، فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم "دخل قوم على فلان فقالوا كذا"، أن يقولوا: "فما قال هو؟" ويقول المجيب: "قال كذا"، أخرج الكلام ذلك المخرج؛ لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذي يسلكونه"(٢) ففصل أقوال المحاورين أو وصلها "بالفاء" إنما يخضع لمتطلبات السياق، ومناسبة المقام فتأتي الفاء للإشارة إلى توالى الأحداث على وجه يخدم سرعة القص ويربط بين الأسباب ومسبباتها، وهذا المعنى راجع إلى طبيعة الفاء وما تدل عليه من الإسراع والتعقيب، فما جاء معطوفا "بالفاء" روعي فيه خصوصية فى القول ، توجب ارتباطه بالأول ارتباط التابع بمتبوعه، فتدخل "الفاء" للدلالة على أن المعطوف مسبب عما قبله، وليس مستقلا عنه(٣).

ويزيد الدكتور/ محمود توفيق سعد بيان هذه الخصوصية فيقول: "فالفاء حين تقرن بفعل القول في باب المحاورة، إنما يرمى بها إلى إبراز أن هذا القول ما كان له أن يكون إلا لما سبقه من قول إيماء إلى شديد استدعاء المقام له،

(١) مفتاح العلوم.الإمام السكاكي ص ٢٠٢.ت أ/ نعيم زرزور: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٤٠.

(٣) ينظر: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء" و"ثم" د/محمد الأمين الخضري ص١٠٥ وما بعدها.

فضلا عن إبراز عنصر التعقيب وأنه قول لم يتكلف له قائله، وأن داعيه كان أقوى من أن يحمل المرء مؤنة الصبر عنه"[١].

وهذا تعليل سديد لما جاء مفصولا في باب المحاورات، وهو ما يعرف بالفصل لشبه كمال الاتصال، ولا شك في أن حذف السؤال المقدر في المحاورة يوفر للأسلوب دقة وإيجازا وإحكاما، ويحدث بين أجزاء الكلام ترابطا داخليا " فالجملة الأولى تثير في النفس خواطر وهواتف فتأتى الثانية مجيبة عن هذه الخوالج وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى، وهكذا يتوالد الكلام، وتتناسل الجمل، ثم إن طى هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه"[٢].

ويسلم الطاهر ابن عاشور بذلك فيعلل لحذف العاطف فيقول:" وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرار العاطف بتكرير أفعال القول، فإن المحاورة تقتضى الإعادة في الغالب فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع وهو كثير في التنزيل وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضى مخالفة الاستعمال وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل "[٣].

وجعل الطاهر ابن عاشور رضي الله عنه العطف بالفاء في المحاورات هو الأصل والظاهر كلام فيه نظر؛ لأن الأمر كما ذكرت راجع لاختلاف المقامات ونسق الجمل والعلائق الجامعة بينهما "فالفاء" لها مواضعها التي تستدعى فيها ولا يسد غيرها مسدها وتركها ومجئ الكلام مفصولا يكون – أيضا – لحاجة الأسلوب لذلك ولكل مقام مقال.

فالراوي أبرز من خلال فعل القول الموصول بالفاء في قوله (إن رجلا من الأعراب أتى رسول الله – ﷺ – فقال .....) أن الأعرابي لم يتمهل في

(١) فقه بيان النبوة: منهجا وحركة أ.د/ محمود توفيق سعد ص ٣١.مطبعة الأمانة ط الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣

(٢) دلالات التراكيب د/ محمد أبوموسى ص ٣١٢.مكتبة وهبة ط ٢ ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧.

(٣) التحرير والتنوير. ج١ ص ٤٠١.

مخاطبة النبي – ﷺ – ولم يمهد لكلامه ولم يلق عليه التحايا وهذا شأن الأعراب إذ تمتلىء قلوبهم وعقولهم بأحوالهم هم التي تسيطر على كل جوانحهم ومشاعرهم فيسارعون إلى المبادرة بأقوالهم التي تلح عليهم ، وكذلك الحال في قول الراوي : (فقال الخصم .....) والخصم هو الأعرابي والد الأجير إذ أغضبه كلام الزوج حيث أظهر حرصه الشديد على الحكم بما قضى الله – تعالى – في كتابه وكأن الآخر لا يطلب ذلك ولا يقدره قدره ومن أجل ذلك بادر الخصم بالرد عليه وأخذ طرف الحديث منه، ولأن الأحداث متسارعة جاء فعل القول الخاص برسول الله – ﷺ – بالفاء (فقال رسول الله – ﷺ – : قل قال .....) فالفاء تحمل معنى السببية والسرعة والتعقيب، وتركت الفاء مع فعل القول الخاص بالأعرابي خصم الزوج والسر في ذلك هو فعل الأمر (قل) فامتثالا لأمر سيدنا رسول الله – ﷺ – تلاشى الزمن وتقاصر قصورا تعجز الفاء عن حكايته بين أمر رسول الله – ﷺ – بالقول وقول الأعرابي ذاته فالفاء إذا جاءت فثمة زمن يتحرك سريعا بين الأمر بالقول واستجابة الأعرابي لهذا الأمر أما عند حذفها فلازمن ولاسرعة بل مباشرة القول فور انتهاء النبي – ﷺ – من كلامه .

وقد ذكر الراوي أن هذا الخصم أفقه من الزوج من خلال جملة الحال (وهو أفقه منه) لتدل على أن هذا الخصم (والد الابن الزاني) أفقه من الزوج في عرض القضية؛ لوصفه إياها على وجهها ويحتمل أنه لأدبه واستئذانه في الكلام وحذره من الوقوع في النهي في قوله تعالى: (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) بخلاف خطاب الأول في قوله : أنشدك بالله فإنه من جفاء الأعراب[1].

(١) شرح النووي ج ١١ ص ٢٠٦ دار إحياء التراث العربي – بيروت لطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

ولم لا يكون الأعرابي فقيها وقد أبلغ وأوجز وأفصح عن قضيته بكلمات معدودات وجمل مرتبة فقال :

(إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا، فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ، وَإِنِّي أُخْبِرْتُ أَنَّ عَلَى ابْنِي الرَّجْمَ، فَافْتَدَيْتُ مِنْهُ بِمِائَةِ شَاةٍ وَوَلِيدَةٍ، فَسَأَلْتُ أَهْلَ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونِي أَنَّمَا عَلَى ابْنِي جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَأَنَّ عَلَى امْرَأَةِ هَذَا الرَّجْمَ)

والعسيف هو الأجير وَسُمِّيَ عَسِيفًا لِأَنَّ الْمُسْتَأْجِرَ يَعْسِفُهُ فِي الْعَمَلِ وَالْعَسْفُ الْجَوْرُ أَوْ هُوَ بِمَعْنَى الْفَاعِلِ لِكَوْنِهِ يَعْسِفُ الْأَرْضَ بِالتَّرَدُّدِ فِيهَا يُقَالُ عَسَفَ اللَّيْلَ عَسْفًا إِذَا أَكْثَرَ السَّيْرَ فِيهِ وَيُطْلَقُ الْعَسْفُ أَيْضًا عَلَى الْكِفَايَةِ وَالْأَجِيرُ يَكْفِي الْمُسْتَأْجِرَ الْأَمْرَ الَّذِي أَقَامَهُ فيه[1] فالعسيف أجير لكن فيه معنى كثرة التردد والملازمة لمن يستأجرونه ولتأكيد هذه الدلالة قال (على هذا)

يقول الطيبي: "وقوله ((علي هذا)) لما يتوجه للأجير علي المستأجر من الأجرة، بخلاف ما لو قال: عسيفاً لهذا؛ لما يتوجه للمستأجر عليه من الخدمة والعمل. أقول: يريد أن قوله: ((علي هذا)) صفة مميزة لـ ((أجير)) أي أجير ثابت الأجرة عليه، وإنما يكون كذلك إذا لابس العمل وأتمه".[2] والأعرابي كان ذكيا في أن يبدأ عرض قضيته بهذه الجملة لأَنَّهُ "أَرَادَ أَنْ يُقِيمَ لِابْنِهِ مَعْذِرَةً مَا وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا بِالْعِهْرِ وَلَمْ يَهْجُمْ عَلَى الْمَرْأَةِ مَثَلًا وَلَا اسْتَكْرَهَهَا وَإِنَّمَا وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ لِطُولِ الْمُلَازَمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِمَزِيدِ التَّأْنِيسِ وَالْإِدْلَالِ فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ الْحَثُّ عَلَى إِبْعَادِ الْأَجْنَبِيِّ مِنَ الْأَجْنَبِيَّةِ مَهْمَا أَمْكَنَ لِأَنَّ الْعِشْرَةَ قَدْ تُفْضِي إِلَى الْفَسَادِ وَيَتَسَوَّرُ بِهَا الشَّيْطَانُ إِلَى الْإِفْسَادِ"[3]

وإذا حدث ذلك في زمن النبوة وهو زمن الطهر والعفاف والحياء، فكيف يكون حال أمتنا اليوم ؟! وقد كثر استخدام الخدم ذكرانا وإناثا، وحدث بسبب هذا الاستخدام مشكلات كبيرة وفتحت أبواب من الشر عظيمة، فالزنا –كما هو

(١) لسان العرب (عسف).
(٢) شرح الطيبي ج ٨ ص ٢٥١٣.
(٣) فتح الباري ج ١٢ ص ١٤١.

معلوم- يكون سهلاً فيما إذا كان الشخص في البيوت أو له علاقة واتصال بالنساء، وليس مثل الرجل الذي ليس له علاقة؛ لأن هذا يتسور الجدران أو يكسر الأبواب، وأما الأول فيدخل ويخرج بسهولة ويسر، فهو ليس أجنبياً بحيث يستغرب دخوله عليهن، وإنما يدخل ويخرج كأهل البيت، فإذا حصل الاختلاط بين الخادم ونساء البيت، أو بين الرجال من أهل البيت مع الخادمات فإنه يحصل بذلك الفتن، ويحصل بذلك الزنا، ويحصل بذلك الشرور التي لا حد لها(١).

وبعد أن ذكر علاقة ابنه بأسرة الزوج باشر في بيان ذنب ولده في قوله : (فزنى بامرأته) فالفاء سببية فهذا العمل سهل له مواقعة المرأة ثم بين الأحكام التي حكم بها من لا حظ له في العلم وهي أن على ابنه الرجم ؛ ولذلك افتداه بمائة شاة ووليدة أي جارية حتى لا يقع المحظور مرة أخرى، وهذا يدل على أن هذا الزوج ساقط الهمة معدوم المروءة والنخوة لا غيرة له على عرض ، ثم أخبر من أهل العلم الثقات بأن على ولده الجلد والتغريب؛ لأنه غير محصن وأن على الزوجة الرجم هذه هي القضية التي عرضت على رسول الله – ﷺ– وهذا كان حكمه و جوابه:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَقْضِيَنَّ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللهِ، الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدٌّ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبُ عَامٍ، وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَا»

وقد استهل النبي – ﷺ – حكمه بهذا القسم " والذي نفسي بيده " والغرض من القسم هو التوكيد أي توكيد المقسم عليه وهو قضاء النبي – ﷺ – بين المتخاصمين بكتاب الله، ولعل داعي التوكيد هنا هو الحكم ذاته وأنه من كتاب الله وإن بدا أن في هذا الحكم ما لم يشمله كتاب الله، فالقسم يؤنس النفوس بهذا الحكم ويؤكد على أن أحكام رسول الله – ﷺ – في سنته وحي

(١) شرح سنن أبي داود د/ عبدالمحسن العباد ج ٢٥ص ٤٣٥وما بعدها

مثل حكم الله في كتابه سبحانه، فالقسم ناظر إلى خطورة الخبر وأهميته حتى يلتفت المتلقى إلى المعنى الأعمق الذي قصد الحديث إليه، وهو أن كل ما ثبت عن رسول الله – ﷺ – من أحكام ولم ينص عليها في القرآن الكريم فهي من كتاب الله ﷻ.

وأيضا في القسم إيناس للأعراب بأن الحكم من كتاب الله ولا مجال للصلح ونحوه خاصة أن الأمر يتعلق بحد من حدود الله فيجب ضبط الأحكام وتحديد ماهيتها .

وإنما اختار النبي – ﷺ – هذه الصيغة في القسم تنبيهاً إلى ما في الافتراء على الله من المخاطرة بالنفس، كأنه قال: كيف أجرؤ أن أقول على الله ما ليس لي بحقٍ وروحي في يده، وهو القادر على أن ينتقم من الكاذب؟ فهذا منه إشارةٌ إلى الآية الكريمة: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1] الحاقة: ٤٤ –٤٧

فالمناسبة واضحة بين صيغة القسم والمقسم عليه فالنبي – ﷺ– نفسه وحاله وذاته كلها بيد الله الخالق الباريء فلذلك يجب التسليم بأن ماينطق به – ﷺ – ما هو إلا وحي يوحي ، كما أن في هذه الصيغة تذكيرا بأن النبي – ﷺ – يخاف أن يتقول لفظا من تلقاء نفسه، فإذا ذكر أن هذه الأحكام في كتاب الله فهي في كتاب الله، ولكن لا يراها الفارغون الذين طبع اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ؛ لأن هذه المعاني تحتاج إلى نور قلب وصفاء نفس، وذكاء عقل، وقوة يقين، وسكون طائر كما هو حال صحابة رسول الله – ﷺ – الذين فطنوا إلى تلك المعاني وأن ما ثبت لرسول الله – ﷺ – وليس في كتاب الله فهو منه بسبيل .

(١) المختار من كنوز السنة د / محمد عبدالله دراز ص ١٨٥.دار الأنصار. ط الثالثة ١٣٩٨هـ.

ولأن هذا القسم (والذي نفسي بيده) فيه معاني التسليم والانقياد لله والخشوع والذلة بين يدي الخالق سبحانه وإقرار بربوبيته وتعليم لأمته من بعده، فهو النبي المعصوم وصاحب الحوض المورود وخير خلق الله أجمعين لا يرى لنفسه حولا ولا قوة إلا بالله، ولكل هذه المعاني جرى هذا القسم كثيرا في بيان النبوة وفي مقامات مختلفة ؛ لأنه خرج من قلب الإيمان والتسليم والإذعان وهو قلب المصطفى – ﷺ –، يقول أبوسعيد الخدري –رضي الله عنه – :" كان رسول الله – ﷺ – إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نفسي بيده، والذي نفس محمد بيده "(١)

وجملة جواب القسم (لأقضين بينكما بكتاب الله) اختلفت كلمة العلماء في تحديد المراد ب(كتاب الله) فقيل: ليس المراد منه القرآن فلا ذكر للرجم في القرآن، بل المراد منه الفرض أي: إنما أوجبه تعالى وفرضه، وقد يجيء الكتاب بمعنى الفرض كقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ} البقرة ١٧٨ {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فيها} المائدة ٤٥، أي: فرضنا، أو المراد الحكم كقوله تعالى: ({أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ} القلم ٤٧، وقيل: المراد القرآن، والرجم إن لم يكن منصوصًا عليه فإنه مذكور على سبيل الإجمال حيث قال: {فَآذُوهُمَا} النساء ١٦، والرجم نوع من الأذى(٢)

ولا حاجة إلى هذا التأويل لأن "ما قضى به صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم هو حكم الله وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى {من يطع الرسول فقد أطاع الله} [النساء: ٨٠] {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا} [الحشر: ٧] فلما أمر باتباعه وطاعته جاز أن يقال لكل حكم حكم به: حكم الله وقضاؤه، إذ ليس في القرآن أن من زنى وافتدى يرد فداؤه، ولا أن عليه نفي سنة مع الجلد ولا أن على الثيب الرجم، وقد أقسم أن يقضي بينهما بكتاب

(١) مسند أحمد ج٣ ص ١٠٠.
(٢) الشَّافِي فيْ شَرْح مُسْنَد الشَّافِعي لابْنِ الأثِيْرْ ج ٣ ص ٥٤ت. د/ أحمَدْ بْن سُليمان . مَكتَبةَ الرُّشْدِ. بدون.

الله وهو صادق "[1] وقد سبق بيان ذلك عند الحديث على وجه الاستدلال بهذا الحديث في باب حُجِّيَّة السنة .

وقد أخذ النبي – ﷺ – يبين هذا الحكم فقال: (الوليدة والغنم رد وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام .....).

وأرى أن بيان الحكم بكتاب الله على هذا النحو هو القضية الأهم في هذا الحديث؛ لأن الأمر لم يكن أمر إجابة فحسب، لأن الأحكام معلومة ونزل بها القرآن وعرفها الصحابة العلماء وقد أفتوا بذلك، ولو كان الغرض هو الفتيا لأجاب النبي – ﷺ – بما يفيد صحة كلام أهل العلم، والبلاغة الإيجاز، أقول: إن النبي – ﷺ – أقسم قسما كله تسليم وخضوع لله بأنه سيقضي بكتاب الله ثم أخذ في بيان هذا الحكم ليؤكد على ان أحكام السنة هي من الله، وهي حكم الله عز وجل حتى ولو لم يكن لها ذكر لفظي في كتاب الله على النحو الذي وضح، وإلا لقال النبي – ﷺ – اختصارا : القول ما قال أهل العلم .

وقد جاءت جملة (الوليدة والغنم رد) مفصولة عما قبلها لكمال الاتصال، فهذه الجملة بيان وتفصيل للقضاء المجمل في قوله – ﷺ – : (لأقضين بينكما بكتاب الله) وذلك الضرب في بناء الجمل يوقظ النفس وينشط العقل لأن النفس تنشغل بالمجمل وتسعى لمعرفة جزئياته فإذا ما جاء البيان و تم التفصيل صادف نفسا قد اشتاقت لذلك فيتمكن المعنى ويزداد أثره في نفسه .

وقد لا حظت في كل روايات الحديث، أن الأعرابي قدم الشياه في حديثه على الجارية، والنبي – ﷺ – قدم الجارية على الشياه ؛ ذلك لأن الأعرابي قدم ما هو أهم للزوج لأن قبوله بالفداء دليل على سقوط همته وبعده عن معاني الرجولة والغيرة والأنفة فقد دنس عرضه وهتكت حرماته ورضي بالفاحشة والخنا على زوجه، بل تعدى الأمر إلى أن يستفتى الناس في أمر الأغنام

(١) شرح الزرقاني ج ٢ ص٢٢٧ دار الكتب العلمية ط : ١٤١١هـ وقد سبق بيان ذلك في ص٤٦ وما بعدها من هذا البحث.

والجارية حتى قال أهل العلم ما قالوا، ثم بعد ذلك يقف أمام الرسول – ﷺ– فيعرض عليه أمره، فلا شك أننا أمام نفس دنيئة جعلت من الزوج سلعة تباع ويقبض ثمنها ورجل هذا حاله، ستتعلق نفسه بما هو أهم له (الأغنام) فقدمه الأعرابي في الذكر.

أما رسول الله – ﷺ – وهو بصدد الحكم فقد قدم الجارية على الأغنام وهذا هو الترتيب المنطقي؛ إذ بدأ بما هو مكرم عند الله وهو الإنسان ثم ذكر ما دونه من عالم الحيوان .

وإسناد المصدر (رد) إلى الوليدة والغنم من قبيل المجاز العقلي لعلاقة المصدرية وذلك مبالغة في إثبات الرد للوليدة والغنم، حتى كأنهما قد تجسما من الرد وأنهما قد استحالا عين الرد نفسه، كما أن وقع هذه الكلمة بجرسها الشديد القوي الناتج عن حرف " الدال " المشدد، وهو حرف شديد جهير، أعطى الكلمة معنى الحسم والفصل ، فالمصدر المكون من حرف الراء وحرف الدال المشدد لفظ صارخ في رد الوليدة والغنم ، والبليغ هو الذي ينطق بالكلمة فتحسم بها الأمور، وتنقاد لها العقول، ومن أقدر على هذا ممن أدبه ربه فأحسن تأديبه ؟ وإنما حسنت المبالغة في رد هذا الصلح؛ لأنه مبني على باطل ولم يكن مبنياً على حق وهذا يدل على أن الصلح إذا كان مخالفاً للكتاب والسنة فإنه يُنقَض ويُرد (١)

وأما ما يخص ولده من عقاب فقد جاء في قوله – ﷺ – :

(وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام)

قال النووي: "وهو محمول على أن النبي – ﷺ – علم أن الابن كان بكرًا، وأنه اعترف بالزنا، وقرينة اعترافه حضوره مع أبيه، وسكوته عما نسبه إليه، وأما

(١) شرح سنن أبي داود د/ عبدالمحسن العباد ج٢٥ ص ٤٣٧.

العلم بكونه بكرًا، فوقع صريحًا في رواية، ولفظها "كان ابني أجيرًا لامرأته وابني لم يحصن".(١)

وجاء التعبير عن مرتكب هذا الفحش بلفظ (ابن) حيث ذكر في هذا الحديث هذا اللفظ أربع مرات :

- (إن ابني كان عسيفا)
- (أخبرت أن على ابني الرجم)
- (أنما على ابني جلد مائة)
- قول النبي – ﷺ – :(وعلى ابنك جلد مائة ...)

فلم يأت (ولدك) وذلك لأن (الابن) يطلق على الذكر و(الولد) يقع على الذكر والأنثى، كما أَن الابْن يُفِيد الِاخْتِصَاص ومداومة الصُّحْبَة وَلِهَذَا يُقَال ابْن الفلاة لمن يداوم سلوكها وَابْن السرى لمن يكثر مِنْهُ وَتقول تبنيت ابْنا إِذا جعلته خَاصّا بك وَيجوز أَن يُقَال : إِن قَوْلنَا هُوَ ابْن فلَان يَقْتَضِي أَنه مَنْسُوب إِلَيْهِ وَلِهَذَا يُقَال : النَّاس بَنو آدم؛ لأَنهم منسوبون إِلَيْهِ وَكَذَلِكَ بَنو اسرائيل .....وَقيل أصل الابْن التَّأْلِيف والاتصال من قَوْلك بنية وَهُوَ مَبْنِيّ وَأَصله بني وَقيل بَنو وَلِهَذَا جمع على أَبنَاء فَكَانَ بَين الْأَب وَالِابْن تأليف وَالْولد يَقْتَضِي الْولادَة وَلَا يقتضيها الابْن(٢).

و سمى الابن ابنا لكونه بناء الأب فإن الأب هو الذى بناه وجعله الله بناءً فى إيجاده، ويقال لكل ما يحصل من جهة شئ أو من تربيته أو بتفقده، أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره هو ابنه"(٣).

فيتحصل من كل ذلك أن التعبير بلفظ البنوة أنسب من غيره، فقول الأعرابي: (إن ابني كان عسيفا على هذا ....) يوحي بأن الأعرابي لديه شعور بالذنب

---

(١) ينظر : شرح النووي ج ١١ ص ٢٠٧.

(٢) الفروق اللغوية أبو هلال العسكري ص ٢٨٢ ت.أ / محمد إبراهيم سليم دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – بدون

(٣) المفردات فى غريب القرآن، ص ٧٢.

والتقصير تجاه تربية ولده فهذا زرعه وهذا بناؤه، ولو أحسن في بنائه لما اقترف ابنه هذا الفحش وكأنه بذهابه لرسول الله – ﷺ – واستفتائه في أمر جناية ابنه يصحح ما قصر فيه.

وقول النبي – ﷺ – : (وعلى ابنك جلد ....) فيه تحميل للأعرابي ولكل أب من بعده مسؤليته تجاه ولده، وأن الولد ما هو إلا بناء يجب أن يتعهده الوالدان جيدا وألا يغفلا عنه وإلا سيكون مأوى لكل خبيث.

وقد صيغ هذا الحكم صياغة مؤكدة؛ فتقديم الجار والمجرور أفاد القصر الإضافي وهو قصر صفة (الجلد والتغريب) على موصوف (ابن الأعرابي) وهو قصر قلب ؛ لأن الأعرابي كان يعتقد أن على ولده الرجم ومن أجل ذلك افتداه بالجارية والأغنام فجاء هذا القصر ليقلب عليه اعتقاده ويصحح له حكم الله في المسألة .

والإسلام دين الرحمة ودين العدل شرع الجلد والتغريب لمصلحة الجاني، فقد وضعت عقوبة الجلد على أساس محاربة الدوافع التي تدعو للجريمة بالدوافع التي تصرف عنها، فالدافع الذي يدعو للزنا هو اشتهاء اللذة والدافع الوحيد الذي يصرف الإنسان عن اللذة هو الألم ولا يمكن أن يستمتع الإنسان بنشوة اللذة إذا تذوق مس العذاب وأي شيء يحقق الألم ويذيق من العذاب أكثر من الجلد مائة مرة والحكمة من التغريب التمهيد لنسيان الجريمة؛ لأن بقاءه في مكانه يحيي ذكرى الجريمة ويحول دون نسيانها بسهولة، كما أن البيئة التي وقع فيها الزنا قد يكون لها دخل في وقوع هذه الجريمة وتسهيلها، ففي إبعاده حيلولة بينه وبين معاودة الجريمة.(١)

واستكمالا لحكم النبي – ﷺ – في القضية توجه بالأمر إلى سيدنا أنيس الأسلمي –رضي الله عنه– فقال " **وَاغْدُ يَا أُنَيْسُ إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنِ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمْهَ**"

(١) ينظر : الحدود في الإسلام ومقارنتها بالقوانين الوضعية د / محمد محمد أبوشهبة ص ١٧٢ومابعدها. وص ١٧٨ومابعدها. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية. القاهرة ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤.

فقَوْله: (واغد) أَمر من غَدا غدواً وَهُوَ الذّهاب هُنَا والتوجه وَلَيْسَ المُرَاد حَقِيقَة الغدو، وَهُوَ التَّأْخِير إِلَى أول النَّهَار[١] ومعلوم أن " يا " لنداء البعيد [٢]، فإذا نودى بها القريب كما في قوله – ﷺ – : (يا أنيس) كان ذلك تنبيها على مكانة الخبر "وبعث (أنيس) محمول عند العلماء من أصحابنا وغيرهم على إعلام المرأة بأن هذا الرجل قذفها بابنه، فيعرفها بأن لها عنده حد القذف فتطالب به أو تعفو عنه إلا أن تعترف بالزنى فلا يجب عليه حد القذف بل يجب عليها حد الزنى وهو الرجم لأنها كانت محصنة".[٣]

وقد ذكر كثير من شراح الحديث أن الْحِكْمَة فِي تَخْصِيص أنيس بِهَذَا الحكم؛ أَنَّهُ – ﷺ – مَا كَانَ يَأْمر فِي الْقَبِيلَة إِلاَّ رجلا مِنْهَا لنفورهم من حكم غَيرهم، وأنيساً كَانَ أسلمياً، وَالْمَرْأَة كَانَت أسلمية.[٤]

وأري أن في هذا الكلام نظرا؛ فما كان لأي قبيلة أن تنفر من حكم رسول الله – ﷺ – خاصة أن الظرف التاريخي لهذا البيان النبوي كائن بعد إقرار الحدود وذلك في أواخر العهد المدني، فقد استقر الإسلام في القلوب ودانت له النفوس وأصبح لسان حال المسلمين جميعا سمعنا وأطعنا، ويبعد كل البعد أن يقال إن النبي – ﷺ – كان يأمر رجلا من كل قبيلة لأنهم ينفرون من حكم غيرهم، والأقرب أنه أرسل إلى المرأة رجلا من قبيلتها تستريح في الكلام إليه، فإما أن تنفي الواقعة أو تعترف بها فيقام عليها الحد، وأيضا في

---

(١) شرح الطيبي ج ٨ ص ٢٥١٢

(٢) ينظر : مغنى اللبيب جـ٢ صـ٧٩٣. ت. د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله دار الفكر – دمشق ط السادسة، ١٩٨٥.

(٣) شرح النووي ج١١ص ٢٠٧

(٤) ينظر :عمدة القاري ج ١٣ ص ٢٧٢دار إحياء التراث العربي – بيروت، وشرح القسطلاني ج٢ ص ١٦٨، المطبعة الكبرى الأميرية، مصرالطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ وفتح المنعم د/ موسى شاهين لاشين. ج٦ ص ٥٩١. دار الشروق ط: الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م.

هذا ستر لها فلم يبعث إليها رجلا من قبيلة أخرى حتى لا يتسع خبر فعلتها، والإسلام يحث على الستر وعدم إشاعة الفاحشة حفاظا على نقاء المجتمع وطهره؛ ولذلك لم يصرح باسم المرأة في كل الحديث بل جاء التعبير عنها آخذا صيغة واحدة (امرأة هذا، أو امرأته) والتعبير عن (الزانية) بهذا اللفظ دون (الزوج) إشارة إلى أنها بفعلتها هذه لا تستحق هذا اللفظ، وعند استقراء الآيات القرآنية التي جاء فيها اللفظان نلحظ أن لفظ "زوج" توارد ذكره في مواطن إثبات صحة العلاقة الزوجية، وأنها لا تنقضي حتى بعد الموت،؛ لأن الزوجية تمتد إلى الآخرة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الروم: ٢١

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ الفرقان: ٧٤

.وبهذا الإعتبار جعل القرآن حواء زوجاً لآدم، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ البقرة: ٣٥ فإذا تعطلت تلك العلاقة بسقوط مقوماتها من الوحدة النفسية والسكن والمودة والرحمة أو بخيانة كامرأة نوح، وامرأة لوط، وامرأة العزيز أوتباين في العقيدة كإيمان امرأة فرعون فيكون التعبير حينئذ بلفظ (امرأة) دون لفظ (زوج) (١)

ولذلك كان التعبير عن هذه الأنثى بلفظ (المرأة) في هذا الحديث مناسب أتم المناسبة؛ لأن المرأة لم تقم بما يتوجب عليها من حفظ زوجها في شرفه، فهي ليست أهلا لهذا الوسم (زوج) الذي يدل على قوة الارتباط بين الزوجين

(١) ينظر : دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني د محمد ياس خضر الدوري ص ١٠٠ ومابعدها.

حتى كأنهما شيء واحد، وكما كانت المرأة مرتكبة الخنا أحقر من أن تسمى زوجة، كان زوجها أحقرمن أن يسمى رجلا فلم يجر له ذكر في الحديث إلا من خلال اسم الإشارة (هذا) على لسان الأعرابي في قوله :

- "إن ابني كان عسيفا على هذا "
- " على امرأة هذا الرجم "

وعلى لسان النبي – ﷺ – :

- " واغد يا أنيس إلى امرأة هذا "

فاسم الإشارة ناطق بتحقير الزوج وازدرائه، فقد ساوم على عرضه وقبل بهذه المرأة زوجا بل جاء إلى النبي – ﷺ – ليستفتيه في الفداء .

ونأتي إلى تمام حكم رسول الله – ﷺ – : " **فإن اعترفت فارجمها** "

ومجئ " الفاء " رابطة بين معاقد الكلام للإشارة إلى أن أسلوب الشرط مسبب عما قبله، وأصل (إن) الشرط في الاستقبال أي تقييد حصول الجزاء لحصول الشرط في المستقبل و تستعمل لما يحتمل وقوعه فالتعبير بـ (إن) الشرطية لأن فعل الاعتراف ليس محقق الوقوع ويوحي هذا الاستخدام بعدم رغبة النبي – ﷺ – في وقوع فعل الشرط (اعترف) ومما يدل على ذلك أن النبي – ﷺ – كان إذا جاءه من يعترف بهذه الفاحشة فإنه يراجعه عله يرجع عن هذا الاعتراف .

ولم يذكر – ﷺ – متعلق الاعتراف وهو (الفاحشة أو الزنا)لأنه مدلول عليه فلاحاجة لذكره، بل إن حذفه فيه صون للسان عن ذلك اللفظ الصادم، بل يسقط النبي – ﷺ – هذا اللفظ من النص الكريم ليسقط من واقع المسلمين ومجتمعاتهم الطاهرة، ولخطورة هذه الفاحشة كان العقاب عليها هو الرجم وهذا ما عبرت عنه جملة جواب الشرط : " **فارجمها** "

والرجْمُ: هو القتل، وقد ورد في القرآن الرَّجْمُ بمعنى القتل في غير موضع من كتاب الله عز وجل، وإنما قيل للقتل رَجْمٌ لأَنهم كانوا إِذا قتلوا رجلاً رَمَوْهُ

بالحجارة حتى يقتلوه، ثم قيل لكل قتل رَجْمٌ، ومنه رجم الثَّيِّبَيْنِ إذا زَنَيا، وأَصله الرمي بالحجارة.(١)

فالمرأة إذا أحصنت وارتكبت الفاحشة فحدها الرجم حتى الموت، والشريعة الإسلامية شريعة حكيمة عادلة تقسو حيث تكون القسوة لازمة، وتلين حيث يكون اللين مطلوبا ووضع أحدهما مكان الآخر غاية الضرر، فالمرأة التي سبق لها الزواج قد وجدت سبيلا إلى الحلال، ومثل هذه لا عذر لها في الوقوع في الجريمة، فمن ثم غلظ الشارع الحكم عليها في الحد وجعله الرجم(٢)

وبذلك يكون البيان النبوي قد أظهر حكم الله في هذه القضية، وأن أحكام النبي – ﷺ – هي في كتاب الله ؛ لأنها وحي من الله والله عزوجل قد أمر المسلمين في كتابه بوجوب طاعة الرسول – ﷺ – ولزوم اتباعه .

والحديث الشريف الذي كان البحث بصدد دراسته وتحليله وإن كان نصا في التشريع إلا أنه نموذج من الأدب العالي الراقي، الذي يمتع النفس، ويقع في القلب قبل العقل، يقول الدكتور/ محمد رجب البيومي : " فنحن نقرأ المواد التشريعية في كل قانون أرضى ، جافةً خشنة تلوح لعقلك جامدة صماء، وكأنما كتب على ذوى التشريع أن يحبسوا أحكامهم في نصوص مظلمة مغلقة، تتطلب منافذ الضوء في كل حرف، وإذا كان القرآن الكريم نسيج وحده في إبداعه التشريعي، فإن نبي الإسلام قد استلهمه التعبير في أكثر ما شرع من أحكام، إنك تقرأ أحاديث " محمد " . ﷺ . التشريعية، فلا يعيبك أن تجد طابعه الأدبي وأن تتلمس عناصر أسلوبه تنادي على نفسها، وتغريك بتأملها تاليا، ومستعيدا حتى لينسى القارئ أنه يطالع تشريعا، وله الحق في ذلك، فهو يقرأ نموذجا من الأدب القوي، يعرض الفكرة النبوية معرضا أخاذا، فيبعث فيها من الحياة، ما يكاد يخرج عن دائرة القانون في أنظار القاصرين"(٣). وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير.

---

(١) لسان العرب "رجم".

(٢) ينظر : الحدود في الإسلام د/ محمد أبوشهبة ص ١٨٢ ومابعدها.

(٣) البيان النبوي. د / محمد رجب البيومي. صـ٤٧. دار الوفاء . المنصورة. ط أولى. ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

المبحث الثاني

وجوب التمسك بسنة النبي - ﷺ- والأمر بطاعته - ﷺ-

تمهيد:

تواترت الأحاديث الشريفة التي تدل على وجوب التمسك بالسنة النبوية وإقامتها وكذلك وجوب طاعة الرسول – ﷺ –، وتلك الطاعة هي عين إقامة السنة والعمل بها، وما ذاك إلا لأن السنة صنو القرآن الكريم في التشريع ودليل من أدلة الأحكام و حجة من الله على العباد والله محاسبهم عليها كما سيحاسبهم على العمل بالقرآن الكريم، قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: «سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – وَوُلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ سُنُنًا، الْأَخْذُ بِهَا تَصْدِيقٌ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَاسْتِكْمَالٌ لِطَاعَةِ اللَّهِ، وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، وَمَنْ عَمِلَ بِهَا مُهْتَدٍ، وَمَنْ اسْتَنْصَرَ بِهَا مَنْصُورٌ، وَمَنْ خَالَفَهَا اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى»(١)

ولا أفهم أسباب تلك الحملة الشرسة على السنة إلا في إطار هدم الدين كله حقدا على الإسلام والمسلمين؛ لأن المتتبع لكل أحاديث النبي – ﷺ– فلن يجد فيها إلا علما وخيرا وبناء وتعميرا ورحمة ؛ فالسنة هي السلام الذي أمر صاحبها بإفشائه، هي الرحمة التي دعا لها الحبيب – ﷺ –، هي الإتقان في العمل، هي الصدق الذي يهدي إلى كل خير، هي النقاء والصفاء، هي بر الوالدين وصلة الأرحام، هي حسن الجوار والكف عن الحرمات، هي حرمة الدم مهما كان الدين و الجنس واللون، هي الوفاء في أسمى صوره، هي الحلم حتى مع الأعداء، هي العدل المطلق لا فرق بين غني وفقير رئيس ومرؤس، هي الوصية بالمرأة خيرا، هي البسمة الحانية، هي الصبر على الأذى، والعفو عمن ظلم، والإحسان لمن أساء، هي كل مكارم الأخلاق، هي رائحة الجنان، وراحة الجنان، كلما مرت عليها السنون زاد جمالها وعبق

(١) السنة. أبو بكر يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي ج٤ ص ١٢٧ ت: د. عطية الزهراني دار الراية – الرياض ط: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

مسكها، ودارت مع أحداث الزمان كأنها قيلت لذلك الزمان تحل مشاكله وتبني أمجاده، وتهدى للتي هي أقوم، أودعها الله – ﷻ – كل مقومات الثبات وآليات المرونة تلبية للمتغيرات فتصلح كل زمان ومكان لأنها وحي من الله – تعالى – .

فـ "السنَةُ هي الجُنَّةُ الحَصِيْنَةُ لِمَنْ تَدَرَّعها، والشِّرْعة المَعِيْنَةُ لمن تَشَرَّعها، دِرْعُهَا صَافٍ، وَظِلُّها ضافٍ، وبيانها وافٍ، وبرهانُهَا شافٍ، وهي الكافلة بالاستقامةِ، والكافية في السلامة، والسُّلَّمُ إلى درجاتِ المقامة، والوسيلة إلى الموافاةِ بصنوف الكرامة، حافِظُهَا محفوظٌ، وملاحِظُها مَلْحُوْظٌ، والمقتدي بها على صراط مستقيم، والمهتدي بمعالمها صائرٌ إلى مَحَلِّ النَّعيْمِ المقيم" [(١)] وقد كثرت أقوال العلماء التي تنبه على الأخذ بالسنة ووجوب اتباعها والتحذير من مخالفتها.

يقول ابن قدامة : «وفي اتباع السنَّة: بركةُ موافقة الشرع، ورضى الربِّ سبحانه وتعالى ورفع الدرجات، وراحة القلب، وَدَعَةٌ البَدَنِ، وترغيمُ الشيطان، وسلوكُ الصراط المستقيم».[(٢)]

و قال ابنُ حبَّان – رحمه الله تعالى – في مقدَّمة صحيحه:

"وإنَّ في لزوم سُنَّتِه: تمامَ السلامة، وَجِمَاعَ الكرامةِ، لا تطفأُ سُرُجُها، ولا تُدْحضُ حججُها، من لزمَهَا عُصِم، ومن خالفها نَدِمَ، إذْ هي الحصنُ الحصين، والركنُ الركين، الذي بان فضْلُه، ومَتُنَ حبْلُهُ، ومن تَمَسَّكَ به ساد، ومن رام خلافه باد".[(٣)]

فهل يليق بعد كل هذا أن ينكرها منكر، أو يقلل من أمرها جاهل ؟!

---

(١) ضرورة الاهتمام بالسنن النبوية. الشيخ / أبو عبد الرحمن عبد السلام آل عبد الكريم ص ٣ دار المنار للنشر والتوزيع، الرياض – المملكة العربية السعودية ط: الأولى، ١٤١٤ هـ

(٢) ذم الموسوسين. ابن قدامة ص ٤١ ط الفاروق الحديثة مصر.

(٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٠٢ ط الرسالة.

ولقد توافرت النصوص القرآنية على الترغيب في السنة، والحث على التمسك بها، والتحذير من مخالفتها ووجوب طاعته – ﷺ – :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ آل عمران: ٣١

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ الحشر: ٧

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ آل عمران: ٣٢

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ النساء: ٥٩

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ النساء: ٦٩

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾ النساء: ٨٠

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ الأنفال: ٢٠

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النور: ٥٢

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ النور: ٥٤

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب: ٣٦

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾ محمد:٣٣

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ الفتح: ١٠

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ الفتح:١٧ (١)

فالآيات التي أمرت باتباع النبي – ﷺ – ووجوب طاعته تدحض كل هذه الافتراءات، وقد أطلت النقل من أقوال العلماء ومن القرآن الكريم ليكون كل ذلك أمام أعيننا في مواجهة هؤلاء الأدعياء فلا نتركهم إلا وقد أصابهم الخزي والخسران، ولن يستطيع هؤلاء النيل من السنة أبدا؛ لأن الله قد تكفل بحفظها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾ القيامة: ١٧ – ١٩

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ النحل: ٦٤

(١) ينظر في اتباع سنة النبي ووجوب طاعته : الرسالة. الإمام الشافعي ج ١ ص ٧٣/ ٨٢/٧٩. ت الشيخ / أحمد شاكر. مكتبة الحلبي. مصر ط أولى ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠ م.

" فهذان دليلان على أن الله تكفل بحفظ السنة، كما تكفل بحفظ القرآن، وتحقيقا لهذا الوعد الكريم من الله عزوجل هيأ الأسباب لحفظها، والذود عن حياضها فأثار في نفوس المسلمين عوامل المحافظة عليها والدفاع عنها، فكانت موضع اهتمامهم ومحل تقديرهم ورعايتهم، منذ أن أشرقت شمسها إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها "(١)

وجاءت الأحاديث النبوية لتؤكد على وجوب التمسك السنة، ووجوب طاعة الرسول – ﷺ – وهذا يدل على ثبوت حجية السنة ومن هذه الأحاديث :

الحديث الأول

عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ"(٢) صدق رسول الله ﷺ

هذا جزء من خطبة الوداع وقد تعددت روايات هذه الخطبة وجاءت بتمامها في بعض الروايات وروي بعض الصحابة أجزاء منها كما فعل عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – وما رواه الصحابي الجليل هو ما انتهى إليه سماعه .

وقبل أن يلج البحث في تحليل النص النبوي لابد وأن نبين السياق المقامي الذي درج فيه النص النبوي، لأن الوعي الدقيق بهذا السياق يساعد على فهم النظم المشكل للبنية اللغوية " وكلما أمعن القاريء في استقصاء روافد السياق

---

(١) ينظر : المؤتمر العلمي الرابع للسيرة والسنة ج٢ ص ٥٣١.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ١٧ ص ١٧٢ت شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون مؤسسة الرسالة ط الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م و سنن الترمذي ج٥ ص ٦٦٢دار إحياء التراث العربي – بيروت والسنن الكبرى، أبو بكر البيهقي ج ١٠ ص ١٩٤ ت. أ/ محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات ط الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م و المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم ج١ ص ١٧١ت.مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.

المقامي كلما كان استبصاره دقائق المعنى وحقائقه ورقائقه أشد نفاذا وأكرم عطاء "[1]

وقد بينت رواية الإمام مسلم عن جابر بن عبدالله البعد الزماني والمكاني لهذا النص النبوي حيث جاء فيها :

"فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى فَأَهَلُّوا بِالْحَجِّ وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - فَصَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَتْ الشَّمْسُ وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ تُضْرَبُ لَهُ بِنَمِرَةَ فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - وَلَا تَشُكُّ قُرَيْشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتْ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ فَرُحِلَتْ لَهُ فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ ....."[2]

وقد بينت تلك الرواية البعد الزماني لهذا البيان النبوي وهو يوم عرفة أفضل الأيام وأكرمها وأشرفها عند الله وشرف الزمان له عظيم الأثر في استعداد النفس لتقبل النصح والتبليغ، فكافة مدارك الإحساس والوعي تكون أكثر انفتاحا وشوقا لكمالات الإيمان التي يلقيها النبي - ﷺ - على مسامع الحجيج في هذا اليوم العظيم، ويزداد هذا الانفتاح ويبلغ الذروة حين يقترن شرف الزمان بشرف المكان ، فالعرصات المقدسة لها جلالها وهيبتها التي تكسب القلوب خشوعا وذلة وخضوعا، فالنفوس مهيأة تهيئة ربانية لتلقي هدي رسول الله - ﷺ - فقد لفهم الجلال وداخلهم حب الإيمان وسربلهم الإقبال على الله -ﷻ- وهذا كله أدعى لتلقي كلام النبي - ﷺ - بالقبول والتسليم ويضاف إلى شرف الزمان والمكان في اكتمال نفاذ التأثير وقوة فعاليته رسول الله - ﷺ - نفسه ؛ فالخطيب هنا ليس كأي خطيب فهو السراج المنير أجمل

(١) فقه بيان النبوة منهجا وحركة د/ محمود توفيق سعد ص ١٥.
(٢) صحيح مسلم ج ٢ص ٨٨٦.

وجها وأبهى طلعة وأكرم رائحة وأعذب صوتا ، فالعيون ترتاح لرؤيته وتأنس النفوس لكلماته فيزداد الأثر وتكمل أسباب الإجادة وتتكاثف عوامل التأثير في المتلقي .

في هذا الجو الإيماني الملائكي يدعو النبي – ﷺ – إلى التمسك بالكتاب والسنة فيقول : " يا أيها الناس ....."

وقد استهل النبي . ﷺ . بيانه بهذا النداء : ((أيها الناس: .....)).، إثارة منه ﷺ . وتنبيها للبشرية جمعاء لما سيُلقي عليها بعد هذا النداء فيجمع المتلقي له قلبه، ويفتح له عقله، وهذا ينبه على أهمية الخبر الذي سيأتي بعد، ومعلوم أن " يا " لنداء البعيد [١]، فإذا نودى بها القريب كان ذلك تنبيها على مكانة الخبر، يقول جار الله الزمخشري : " فإذا نودي بها ـ أي ـ بـ "يا" القريب المقاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنى به جدا"[٢].

وقد ذكر ابن هشام أن " يا " قد ينادي بها القريب توكيدا[٣] ولعل منشأ هذا التوكيد راجع إلى ما يحدثه النداء من إثارة وانتباه في نفس المخاطب، مما يجعله يتلقي الخبر على قدر عال من الإيقاظ والإحساس، وهذا أثبت في تقرير المعنى وتمكينه في الذهن، وهذا ما يؤول إليه كل تأكيد، كما أن هذا النداء يحمل في تضاعيفه كل معاني التلطف والتودد والرقة، و«أى» اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجرى مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو «أىّ» والاسم التابع له صفته[٤] فطريقة النداء هذه فيها توضيح بعد إبهام تشوق للمقصود بالنداء و"المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام

(١) ينظر : مغنى اللبيب جـ٢ صـ٧٩٣.

(٢) الكشاف. للإمام الزمخشري جـ١ صـ٢٠٩. دار الكتاب العربي – بيروت ط الثالثة – ١٤٠٧ هـ

(٣) مغني اللبيب جـ٢ صـ٧٩٣.

(٤) ينظر : الكشاف ج١ ص ٨٩.

تشوّقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجّه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان الشعور به أتمّ"[١]

وكل هذه المعاني تدل على أن الأمر الذي من أجله كان هذا النداء مما يجب التنبه له وإيقاظ كافة مدارك الإحساس فليعط المنادى أذنه وقلبه وعقله لتلقي ما بعد النداء أمرا أو نهيا وتزداد معاني التنبيه والإيقاظ من خلال دلالة التنبيه بـ(ها) " الممتدة بين " أي " والوصف " فهي تعاضد حرف النداء وتقويه فتزيد هذه الطريقة من النداء قوة ووكادة "[٢]، ولاشتمال هذه الطريقة من النداء على ضروب من التأكيد والمبالغة في تنبيه وإيقاظ المنادين كثر ورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأن كل ما نادى الله – تعالى – ورسوله – ﷺ – له عباده من الأوامر والنواهي، والعظات والزواجر والوعد والوعيد، و أخبار الأمم الدارجة عليهم، وغير ذلك مما جاء في كتاب الله وسنة الرسول – ﷺ – من أمور عظام، وخطوب جسام، ومعان كرام علي المنادين أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، فاقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ في الإيقاظ والتنبيه [٣]

و (الناس) اسم جمع نودي هنا وعرف بأل ليشمل كل أفراد مسماه وقد تكرر نداء (الناس) في خطبة الوداع ست مرات :

– أيها الناس: اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا.....

---

(١) الإيضاح (وعلى هامشه البغية لعبد المتعال الصعيدي)، ج ٢ص ١٣٣، الخطيب القزويني، مكتبة الآداب ط١٤١٢هـ-١٩٩١م.

(٢) من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب. د/ محمد أبوموسى ص ٤٤. مكتبة وهبة ط ط الثانية ١٤١٦هـ .

(٣) تأثرت في هذا التحليل بتفسير الزمخشري ج ١ ص ٩٠ وتفسير أبي السعود ج ١ ص ٥٨.

- **أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام.....**
- **أيها الناس – فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم.....**
- **أيها الناس: [إنما] النسيء زيادة في الكفر.....**
- **أيها الناس: فإن لكم علي نسائكم حقاً،.....**
- **أيها الناس: اسمعوا قولي واعقلوه.....**

فنداء (الناس) هنا يقصد إلى بيان معنى العالمية في هذا الدين، وأن البشرية بكل ثقافاتها وألوانها وأجناسها تحتاج إلى هذا الدين وشرعته ومنهاجه إذا أرادت أن تكون من عالم الأناسي لا من عالم الحيوان ؛ لأن من وجد فيه معنى من معاني الإنسانية لن يملك إلا أن يمتثل ويذعن لهذه الكمالات الإيمانية الكونية التي تسعى لها كل فطرة سوية ، ولا يبعد إذا قلنا أن لفظ "الناس" يراد بهم المؤمنون ويكون الكلام من قبيل المجاز المرسل لعلاقة العموم وسر بلاغته الإيماء " إلى أن المؤمنين هم الناس الذين ينبغي أن يكونوا أناسا، وقد وصف القرآن الكريم غير المؤمنين، بأنهم كالأنعام أو أضل، ونفى عنهم السمع، والبصر، والفؤاد؛ لأنهم لا ينتفعون الانتفاع الحقيقي بشيء من ذلك "(١)

ولأن المعنى هنا إنساني فيه عمارة الكون بل فيه عمارة الإنسان في دنياه وأخراه كان الخطاب هنا شاملا للبشر في عموم الزمان وآفاق المكان، فليس الخطاب هنا للناس السامعين الذين تلقوا هذا التوجيه النبوي ابتداء فالخطاب مقصود به السامعون و لمن لم يحضر وقت السماع، ولمن سيوجد بعد ذلك حتى قيام الساعة " بقرينة عموم التكليف وعدم قصد تخصيص الحاضرين وذلك أمر قد تواتر نقلا ومعنى فلا جرم أن يعم الجميع من غير حاجة إلى القياس، وإن نظرت إلى أن هذا من أضرب الخطاب الذي لا يكون

(١) من أسرار البيان النبوي. د / أحمد محمد على. ص ٧٧. دار الصحوة. القاهرة. ط أولى. ١٤٠٦ هـ

لمعين فيترك فيه التعيين ليعم كل من يصلح للمخاطبة بذلك وهذا شأن الخطاب الصادر من الدعاة والأمراء والمؤلفين في كتبهم من نحو قولهم يا قوم، ويا فتى، وأنت ترى، وبهذا تعلم، ونحو ذلك فما ظنك بخطاب الرسل وخطاب هو نازل من الله تعالى كان ذلك عاما لكل من يشمله اللفظ من غير استعانة بدليل آخر. فقرينة عدم قصد الحاضرين ثابتة واضحة، غاية ما في الباب أن تعلقه بالحاضرين تعلق أصلي إلزامي وتعلقه بالذين يأتون من بعد تعلق معنوي إعلامي"(١).

وبعد تنبيههم وإيقاظ حواسهم جاءهم بيان النبي – ﷺ – :

"**إني قد تركت فيكم ما إن تمسكتم به .....**"

وقد جاء البيان مؤكدا ب"إنَّ" و"قد" ودلالة الفعل الماضي " تركت " المؤذنة بتحقق الفعل مع أنه – ﷺ – يتحدث عن غيب لم يقع؛ فكل هذا التأكيد ليس لأن المخاطبين يداخلهم شك في كلام النبي – ﷺ – بل التأكيد يهدف إلى زيادة تقرير المعنى في نفوس المسلمين خاصة أن النبي – ﷺ– يهيئهم لفكرة موته وغياب جسده وبقاء أثره الخالد الكفيل بحمايتهم من ظلام التيه وتخبط الضلال، فينهضوا لحمل الرسالة والحفاظ عليها وإيصالها للدنيا كلها، إذن فالمعنى خطير له قدره وجلاله فلتُحشد له المؤكدات تنبيها على ذلك فتتلقاه النفوس بمزيد من العناية والاهتمام .

وقد توقفت مليا مع هذا الظرف (فيكم) وأخذت ألملم النفس لأخط عطاياه وأكتب في خلابة معناه؛ إذ المعنى قد يتم بدونه فيقال مثلا : " إني قد تركت ما إن تمسكتم به ...." ولكن هذا التعبير في الثرى وتعبير الحبيب المصطفى في الثريا، لقد أثار قوله : " فيكم " النفس وشحذ العقل؛ لأنه جعل الكتاب والسنة أمانة في الأعناق ونقل النبي – ﷺ – من خلال هذا الظرف المسؤلية الكاملة عن الكتاب والسنة إلى المخاطبين ومن يأتي من

(١) التحرير والتنوير ج ١ ص ٣٢٥ وما بعدها.

بعدهم إلى قيام السياعة وقد بين القرآن الكريم أن أمانة الدعوة للرسول – صلى الله عليه وسلم – ولمن اتبعه من بعده، وكل على قدر طاقته وحاله قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٨ كما أن هذا الظرف فيه معنى الحنو والاحتضان لهذه الدعوة فهي متغلغلة ومتعمقة فينا نحيا بها ونحيا لها فتراها كل الأمم واقعا حيا ماثلا يراه الراءون ويسمعه السامعون، حتى يكون شجو حساد الإسلام وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع .

والظرف دل – أيضا – على انتشار هذه الدعوة فينا وسربلة كل أفعالنا بصبغتها، فتكون كافة حركاتنا وسكناتنا وفق الإرادة الإلهية كما جاء في الكتاب والسنة، فالأمة بهذا الظرف "فيكم" أصبحت وعاء لهذه الدعوة ، فتقيمها الدعوة حتى تستوي الأمة على عودها وتقوم الأمة لها فتعض عليها وتحافظ عليها وتنصح لها، ففي هذا الظرف (فيكم) مدعاة إلى الامتثال والإذعان لكلام النبي – ﷺ –، والتمسك بالكتاب والسنة، ولأن غرض الكلام ومقصده متجه إلى هذا الظرف جاء تقديمه على المفعول وهو اسم الموصول (ما) والذي جاء لغرض التشويق لمعرفة هذا المتروك والذي لن يعرف إلا بتمام الحديث حتى جملة الصلة لن تشفي نفوسا قد غلبها الشوق لمعرفة ما شوقهم إليه رسول الله – ﷺ –، لأنها درجة من درجات الإلهاب والتهييج لنفوس المخاطبين وهذه الجملة هي الجملة الشرطية في قوله – ﷺ – : "**إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا**"

وقد جاءت أداة الشرط " إن" التي تفيد الشك والاحتمال في وقوع فعل الشرط لتثير النفوس وتلهب حماسة المسلمين للاعتصام بالكتاب والسنة، وأن هذا الاعتصام ليس سهلا على النفس وإنما يحتاج مجاهدة ومثابرة و إلى نفوس كبار فهو أمر عزيز، خاصة أن شياطين الإنس والجن تعمل صباح مساء على انتزاع هذا الدين من قلوبنا وواقعنا وما الهجمة على السنة إلا جزء

من هذه الحرب ! فلتوطن النفس على التمسك بالسنة والعض عليها بالنواجز كل هذه المعاني أثارته أداة الشرط "إن " .

وقد جاء فعل الشرط على ثلاث روايات :

- " اعتصمتم به " وهي الرواية محل الدراسة .
- " تمسكتم به " وهي رواية الترمذي عن زيد بن أرقم .[١]
- " أخذتم به " وهي رواية للترمذي عن جابر بن عبدالله ولأحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عن الجميع – . [٢]

أما رواية (اعتصمتم):

فالْعَيْنُ وَالصَّادُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِمْسَاكٍ وَمَنْعٍ وَمُلَازَمَةٍ. وَالْمَعْنَى فِي ذَلِكَ كُلِّهِ مَعْنًى وَاحِدٌ. مِنْ ذَلِكَ الْعِصْمَةُ: أَنْ يَعْصِمَ اللَّهُ – تَعَالَى – عَبْدَهُ مِنْ سُوءٍ يَقَعُ فِيهِ، وَاعْتَصَمَ الْعَبْدُ بِاللَّهِ – تَعَالَى –، إِذَا امْتَنَعَ وَاسْتَعْصَمَ: الْتَجَأَ. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: أَعْصَمْتُ فُلَانًا، أَيْ هَيَّأْتُ لَهُ شَيْئًا يَعْتَصِمُ بِمَا نَالَتْهُ يَدُهُ أَيْ يَلْتَجِئُ وَيَتَمَسَّكُ بِهِ.[٣]

ولذلك ففي قوله (اعتصم) استعارة تصريحية تبعية حيث شبه التمسك بالاعتصام للمشابهة التي بينهما ففيهما معنى الحفظ والاتباع إلا أن الاعتصام أعلى من التمسك؛ لأن فيه معنى الاستمساك والالتجاء والانقياد، والقول الجامع في بيان معنى الاعتصام بالكتاب والسنة ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين عند حديثه عن الاعتصام بالله – ﷻ – يقول – ﷺ – : "والاعتصام به نوعان: اعتصام توكل واستعانة وتفويض ولجإ وعياذ وإسلام النفس إليه والاستسلام له سبحانه والثاني: اعتصام بوحيه وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم ومعقولاتهم وأذواقهم وكشوفاتهم ومواجيدهم فمن لم يكن

---

(١) سنن الترمذي ج ٥ ص ٦٦٣

(٢) ينظر : السابق ج ٥ ص ٦٦٢و مسند الإمام أحمد ج١٨ ص ١١٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة. ابن فارس ج ٤ ص ٣٣١.ت. أ/ عبد السلام محمد هارون. دار الفكر ط ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

كذلك فهو منسل من هذا الاعتصام فالدين كله في الاعتصام به وبحبله علما وعملا وإخلاصا واستعانة ومتابعة واستمرارا على ذلك إلى يوم القيامة"[١]

فالاعتصام بالكتاب والسنة فيه كل معاني التفويض لهما والاستعانة بهما ورد كل أمر إليهما، والانقياد إلى أحكامهما وإقامة هذه الأحكام بلا تفريق بين ما جاء في القرآن الكريم وما جاء ثابتا في سنة النبي – ﷺ –، فقد جعل هذا الفعل (اعتصم) الكتاب والسنة ملجأ وحصنا حصينا للأمة فتهدى إلى صراط مستقيم، وتقود البشرية إلى مدارج الكمال .

ورواية (تمسكتم) قريبة من هذا المعنى يقول ابن منظور : "أَمْسَكْت بالشيء وتَمَسَّكتُ به واسْتَمْسَكت به وامْتَسَكْتُ كُلُّه بمعنى اعتصمت." [٢] وهو مستعمل مجازا في معنى الثبات على الشيء[٣] وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية حيث شبه الثبات بالتمسك وسر خلابتها أنها أظهرت المعنى في صورة حركية محسوسة حيث الأمة وقد قبضت على كتابها وسنتها قبضا شديدا قويا حتى لا يتفلت منها شيء أي شيء من دينها وهدي ربها.

وأرى أن تنوع فعل الشرط بين (اعتصم) و (تمسك) و(أخذ) راجع إلى حال الأمة في عصورها المختلفة، فحين تكون الأمة قوية عزيزة يكون فعل الشرط المناسب

(أخذ) فهي تأخذ بأحكام الكتاب والسنة لا ينازعها في ذلك منازع ، أما إذا كانت الأمة ضعيفة يتربص بها الأعداء وتكثر فيها الفتن فالأولى والأنسب أن يكون فعل الشرط (اعتصم) أو (تمسك)؛ لأن هذا الاعتصام هو سفينة نوح – عليه السلام –فمن ركبها نجا من بحار التيه وظلمات الفتن، خاصة أن أعداء

(١) مدارج السالكين ابن القيم ج ٣ ص ٣٢٣ ت.أ/ محمد المعتصم بالله البغدادي دار الكتاب العربي – بيروت ط. الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م.

(٢) لسان العرب (عصم).

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ج٢٥ ص ١٨٧.

هذا الدين يمكرون ظاهرا وباطنا لهدم هذا الدين وطمس معالمه، فكل رواية لفعل الشرط تخاطب الأمة في عصورها المختلفة قوة وضعفا، والأمة الآن في مرحلة العض على السنة بالنواجذ .

ومجيء حرف الجر الباء في قوله: (اعتصمتم به) أفاد قوة الإلصاق ووثوق الارتباط بين المخاطبين وما دل عليه الضمير وهو (الكتاب) و(السنة) ومجيء الضمير مفردا مع أن الحديث عن أمرين ناظر إلى معني جليل وهو أن الاعتصام بالسنة هو عين الاعتصام بالكتاب فهما لا ينفكان أبدا وأن الأخذ بأحدهما لا ينفع بدون الآخر، وفي هذا المعنى رسالة سديدة لمن ينكر السنة ويقلل من أمرها .

وقد تعلقت النفس بجواب الشرط؛ لأنه المكافأة والحافز الذي يقنع ويلهب لتحقيق فعل الشرط وهو قوله – ﷺ – : "**فلن تضلوا أبدا**"

وقد جاءت جملة جواب الشرط لتبين أن جزاء المعتصمين بالكتاب والسنة وهو عدم ضلالهم والضلال اسم جامع لكل ما هو قبيح فهو الجور والحيرة وفقد الاهتداء والعدول عن الطريق المستقيم، قال الراغب: "هو العدولُ عن الطريقِ المستقيم، وتُضادُّه الهدايةُ؛ قال الله تعالى: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس: ١٠٨]، ويقال: الضلال: لكل عُدُولٍ عن الحق، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا؛ فإن الطريقَ المستقيم الذي هو المرتضى صعب جدًّا، ويسمى الهلاك ضلالة كما قال – عز وجل –: ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [السجدة: ١٠] والضلال الهلاك، ومنه قولهم: ضلت الناقةُ: إذا هلكت بضياعها، والضلال يطلق على الكفر؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]و يُطلَق على الشِّرك؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦]"[(١)]

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن ص ٣٩٠ ومابعدها ولسان العرب مادة "ضلل"

فالاعتصام بالكتاب والسنة والعمل بما فيهما ينجي من كل هذه المفاسد "**وكل نعمة دون نعمة الهدى وكل مصيبة دون مصيبة الضلال**"[1] فقد جاءت جملة الشرط بها جماع كل خير فلتعتصم النفس بالكتاب والسنة فمن فاتهما ضاعت له دنياه وآخرته ولله در ابن القيم عندما صور حال من غاب عنه هدي المصطفى – ﷺ – فقال : " وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ إِذَا غَابَ عَنْكَ هَدْيُهُ وَمَا جَاءَ بِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فَسَدَ قَلْبُكَ، وَصَارَ كَالْحُوتِ إِذَا فَارَقَ الْمَاءَ وَوُضِعَ فِي الْمِقْلَاةِ، فَحَالُ الْعَبْدِ عِنْدَ مُفَارَقَةِ قَلْبِهِ لِمَا جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ كَهَذِهِ الْحَالِ بَلْ أَعْظَمُ، وَلَكِنْ لَا يُحِسُّ بِهَذَا إِلَّا قَلْبٌ حَيّ وَ مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ وَإِذَا كَانَتْ سَعَادَةُ الْعَبْدِ فِي الدَّارَيْنِ مُعَلَّقَةً بِهَدْيِ النَّبِيِّ – ﷺ – فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ وَأَحَبَّ نَجَاتَهَا وَسَعَادَتَهَا أَنْ يَعْرِفَ مِنْ هَدْيِهِ وَسِيرَتِهِ وَشَأْنِهِ مَا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ الْجَاهِلِينَ بِهِ، وَيَدْخُلُ بِهِ فِي عِدَادِ أَتْبَاعِهِ وَشِيعَتِهِ وَحِزْبِهِ، وَالنَّاسُ فِي هَذَا بَيْنَ مُسْتَقِلٍّ وَمُسْتَكْثِرٍ وَمَحْرُومٍ، وَالْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"[2] وبذلك يكون الجزاء من جنس العمل، فالكتاب والسنة نور وروح وهداية واستقامة وإيمان ونجاة وحياة طيبة وجنة في الآخرة؛ ولذلك جاء الجزاء جامعا لكل ذلك وفي ذلك قوة إقناع ودفع سديد إلى الامتثال والإذعان بأوجز لفظ وأوفى معنى .

وقد صيغت هذه الجملة صياغة مؤكدة من خلال "لن " التي تفيد تأكيد نفي ضلالهم في المستقبل على التأبيد وجاء قوله " أبدا" تأكيدا لهذا التأبيد قال صاحب الكتاب:" و"لن" لتأكيد ما تعطيه "لا" من نفي المستقبل. تقول: "لا أبرح اليوم مكاني". فإذا وكدت وشددت، قلت: "لن أبرح اليوم مكاني". قال الله تعالى: {لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين} الكهف ٦٠، وقال تعالى: {فلن أبرح

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. ابن القيم ص ٦٩ دار المعرفة، بيروت، لبنان ط ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد ج١ ص ٦٩ مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار الإسلامية، الكويت ط. السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م

الأرض حتى يأذن لي أبي} يوسف ٨٠ "[١] فسيبويه يدلل على إفادة "لن" تأكيد النفي وتقويته، ويزيد ابن يعيش على ذلك إفادتها معنى التأبيد تأييدا لرأي شيخه الزمخشري الذي أكد على ذلك في معرض تفسيره لقوله تعالى (لن تراني) الأعراف ١٤٣ [٢] يقول ابن يعيش :" اعلم أن "لَنْ" معناها النفي، وهي موضوعة لنفي المستقبل، وهي أبلغ في نفيه من "لا"؛ لأن "لا" تنفي "يَفْعَلُ" إذا أُريد به المستقبل، و"لَنْ" تنفي فعلاً مستقبْلًا قد دخل عليه السين وسَوْفَ، وتقع جوابًا لقول القائل: "سيقوم زيدٌ"، و"سوف يقوم زيدٌ". والسين وسوف تفيدان التنفيس في الزمان، فلذلك يقع نفيُه على التأبيد وطُولِ المُدّة، نحوِ قوله تعالى: {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} ..... فذكر الأبد بعد "لَن" تاكيدًا لِما تُعطيه "لَنْ" من النفى الأبَدي"[٣]

فـ "لن" أفادت تأكيد نفي الضلال وتأبيده لمن اعتصم بالكتاب والسنة، وجاءت "أبدا" لتؤكد هذا التأبيد، وهذا التأبيد والتأكيد نابع من قوة إحساس النبي – ﷺ – ووثاقته بقدرة الكتاب والسنة على انتشال هذه الأمة من مهاوي الضياع ودنيا الهلاك في كل عصر ومصر .

ومع أن البيان النبوي ذكر الشرط والجواب إلا أن المتلقي لم يقف حتى الآن على ما أراده النبي – ﷺ – من هذا البيان، فالنفس قد شغلت بهذا الذي تركه النبي – ﷺ – والذي جعل الاعتصام به منجاة من كل شر والأخذ بكل خير حتى إذا ما جاء قوله – ﷺ – : " **كتاب الله وسنة نبيه** "

صادف نفسا قد ملكها الشغف واستبد بها الشوق فاستقر في العقول وسويداء القلوب، وفي قوله " كتاب الله" بيان لحيثية الاتباع فهذا الكتاب هو كلام الله الحكيم الخبير الذي يعلم السر في السماوات والأرض فهو أولى أن

---

(١) الكتاب. سيبويه ج ٣ ص ٥ ت. أ / عبدالسلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة.ط الثالثة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١٥٤.

(٣) شرح المفصل. ابن يعيش ج ٥ ص ٣٧ وما بعدها.

يتبع ويقام، وكذلك الحال في قوله : (سنة نبيه) وفرق بين أن يقال : (سنتي) كما جاء في رواية أخري[1] وأن يقال :"سنة نبيه" ذلك لأن التعبير هنا أدعى للالتزام والاتباع فهي سنة النبي الذي أرسله ربه وأدبه فأحسن تأديبه وشرح صدره وآتاه جوامع الكلم وجعل منطقه وحيا يوحى، ويلاحظ على هذه الرواية أن النبي – ﷺ – يتحدث عن نفسه حديث الغائب الذي ولى _ بأبي هو وأمي – ﷺ – وذلك لتوطين نفس المخاطبين على دنو أجله وغياب جسده وأن حصانة الأمة من بعده في القرآن الكريم والسنة المطهرة .

وفي رواية أخرى " كتاب الله وسنة نبيكم "[2] وهذه الرواية ناظرة إلى معنى جليل وهو أنكم يا معاشر الناس أولى الناس بهذه السنة؛ لأنها سنة نبيكم الذي أرسله الله لكم بالهدى ودين الحق فأنتم أحق بالحفاظ على سنته والقيام بأمرها.

والحديث الشريف بني من أوله إلى آخره على التشويق ولك أن تقارن بين أن يقال : أيها الناس اعتصموا بالكتاب والسنة، بهذا الأمر المباشر وبين النص النبوي الذي بني على الغموض المحبب الذي لا يتكشف إلا مع آخر لفظ، وكل هذا يفضي إلى التشويق الذي يمكن المعنى ويجعله قارا في الوجدان والحس، ففرق بين أن يأتي المعنى خلوا من عناصر التشويق والإثارة وبين أن يبنى الأسلوب على ذلك يقول الإمام عبدالقاهر : "ومن المركوز في الطبع أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نَيله أحلَى، وبالمزِيَّة أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضَنَّ وأَشْغَف، ولذلك ضُرب المثل لكل ما لَطُف موقعه ببرد الماء على الظمأ، كما قال: وهُنَّ يَنْبِذْنَ من قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ مَوَاقِعَ الماءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي.

(١) المستدرك على الصحيحين ج١ ص ١٧٣.

(٢) دلائل النبوة البيهقي ج ٥ ص ٤٤٨. دار الكتب العلمية – بيروت ط: الأولى – ١٤٠٥ هـ.

وأشباه ذلك مما يُنال بعد مكابدة الحاجة إليه، وتقدُّم المطالبة من النفس به"[١] ويؤكد الإمام على جمال هذا المنزع النفسي في تلقي المعاني فيقول: "إنّ التوق إلى أن تقرّ الأمور قرارها، وتوضع الأشياء مواضعها، والنزاع إلى بيان ما يشكل، وحلّ ما ينعقد، والكشف عمّا يخفى، وتلخيص الصفة حتى يزداد السامع ثقة بالحجة، واستظهارا على الشبهة، واستبانة للدليل، شيء في سوس العقل، وفي طباع النفس إذا كانت نفس"[٢].

فالغرض من البيان النبوي حث المسلمين على الاعتصام بالكتاب والسنة فجاء النص مع إيجازه محتشدا بالمعاني قاصدا مقنعا مشوقا محكم السرد قوي الحبك لا ترتاح النفس إلا مع آخر لفظ وهذا هو النمط العالي من النظم، الذي تتَّحِدُ أَجزاؤه حتى يُوضَعَ وَضْعاً واحداً، فتكون كل واحدة من الكلمات آخذة بحجزة أختها بحسب ترتب المعاني في النفس في تناسق جميل ونظم بديع يدرك ذلك كل من أوتي نصيبا من الذوق والحس، وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير.

❁❁❁❁❁

(١) أسرار البلاغة ص ١٣٩. ت. الشيخ/ محمود شاكر ٠ مكتبة الخانجى ط أولى ١٩٩١م ٠

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٨.

الحديث الثاني

عن العرباض بن سارية – رضي الله عنه– قال: صَلَّى بنا رسولُ الله– ﷺ – ذات يوم، ثم أقبلَ علينا، فوَعَظَنا موعظةً بليغةً ذَرَفَتْ منها العيونُ ووَجِلَت منها القلوبُ، فقال قائل: يا رسولَ الله– ﷺ – كأنَ هذه موعظةُ مودعٍ، فماذا تَعهدُ إلينا؟ قال: "أوصيكُم بتقوى الله والسمعِ والطَّاعةِ وإنْ عَبْداً حبشيًّاً، فإنَّه من يَعِشْ منكم بَعْدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً، فعليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ، الرَّاشدينَ المَهديّينَ، تَمَسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فإن كُلَّ مُحدَثَةٍ بدْعَةٌ، وكل بدعَةٍ ضَلالةٌ»[1] صدق رسول الله – ﷺ –

هذا الحديث الشريف له حضوره على ألسنة العلماء والدعاة ولأهميته شرحه الإمام النووي في الأربعين النووية، وهذا الحديث نص في الأخذ بسنة النبي – ﷺ – والتمسك بها ولم يجر ذكر فيه للأخذ بكتاب الله مع أنه ثم تلازم في أحاديثه – ﷺ – بين الأخذ بكتاب الله و الأخذ بسنته – ﷺ – و سيعرض البحث لذلك في حينه .

وقد هيأ راوي الحديث للنص النبوي فبين أن هذه الموعظة كانت بعد أداء الصلاة ورواية الحاكم بينت هذه الصلاة وهي صلاة الصبح [2] فالنفس قريبة في هذا الوقت من خالقها، صافية لا تعكرها شواغل الحياة، ولا أنفاس المنافقين خاصة أن الصلاة كانت في المسجد النبوي أطهر البقاع وأكرمها بعد بيت الله الحرام، ويتعاظم صفاء النفس والإقبال على الله – تعالى –؛ لأن الذي أمهم في الصلاة هو سيدنا رسول الله – ﷺ – فسمعوا منه القرآن الكريم

(١) سنن أبي داود ك. السنة. ب. لزوم السنة ج٧ ص ١٧ وصححه الشيخ شعيب الأرنؤط، ومسند أحمد ج ٢٨ ص ٣٧٣ وسنن ابن ماجة ج١ ص ١٦ وسنن الدارمي ج١ ص ٢٢٨، وصحيح ابن حبان ج١ ص ١٧٨، والمستدرك على الصحيحين ج ١ ص ١٧٤.واللفظ لأبي داود.

(٢) المستدرك على الصحيحين ج ١ ص ١٧٤.

بصوته العذب الندي فرفعهم إلى عالم الملائكة الأبرار فالنبي – ﷺ– سيد الدعاة يعرف أنسب الأوقات لكي يتخول الناس بالموعظة حتي تكتمل عوامل التأثير والإقناع، وقد بلغ بهم التأثير غايته حتى وصف العرباض هذه الموعظة بالبلاغة مع أن كل مواعظه – ﷺ – هكذا بليغة ومؤثرة ويبدو أن عوامل التأثير في هذه الموعظة كان أغزر من غيرها حتى تأثرت النفوس فذرفت العيون ووجلت القلوب حتى إن أحدهم يصفها بأنها وصية مودع وهذا " يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ – ﷺ – قَدْ أَبْلَغَ فِي تِلْكَ الْمَوْعِظَةِ مَا لَمْ يُبْلِغْ فِي غَيْرِهَا، فَلِذَلِكَ فَهِمُوا أَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَإِنَّ الْمُوَدِّعَ يَسْتَقْصِي مَا لَمْ يَسْتَقْصِ غَيْرُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلِذَلِكَ أُمِرَ النَّبِيُّ – ﷺ – أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، لِأَنَّهُ مَنِ اسْتَشْعَرَ أَنَّهُ مُوَدِّعٌ بِصَلَاتِهِ، أَتْقَنَهَا عَلَى أَكْمَلِ وُجُوهِهَا. وَلَرُبَّمَا كَانَ قَدْ وَقَعَ مِنْهُ – ﷺ – تَعْرِيضٌ فِي تِلْكَ الْخُطْبَةِ بِالتَّوْدِيعِ "[1] وهذا يفسر لنا سؤال الصحابي الاستزادة من كلام سيدنا رسول لله – ﷺ – وقد بدأ النبي – ﷺ – بيانه بقوله: " **أوصيكُم بتقوى الله** "

وهي وصية جامعة لكل خير وبها كانت وصية الله للأولين والآخرين قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ .....الآية ١٣١ ﴾ النساء: ١٣١

وتقوى الله –ﷻ – هي أن يجعل العبد بينه وبين غضب الله وقاية من فعل الطاعات واجتناب المنهيات؛ ولذلك كانت التقوى هي الغاية المرجوة من كل العبـــادات قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ﴾ البقرة: ٢١

(١) جامع العلوم والحكم. ابن رجب الحنبلي ج٢ص ١١٤: ت الشبخ / شعيب الأرنؤط مؤسسة الرسالة – بيروت ط السابعة.

فإذا تحقق العبد بها نال سعادة الدارين، والذي يجب أن يلاحظه البحث أن التعبير في الحديث قد جاء بلفظ (أوصيكم) وكثيرا ما جاء البيان النبوي مع التقوى بهذا اللفظ :

-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ - ﷺ - يُرِيدُ سَفَرًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْصِنِي. قَالَ: "أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ ....."[١]

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي قَالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهَا رَأْسُ أَمْرِكَ»[٢]

- مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، وَكَظْمِ الْغَيْظِ» [٣]

وكثير من الأحاديث جاء على هذا النحو؛ لأن هذا الفعل في أعلى درجات البلاغة صيغة ودلالة فصيغة المضارعة جددت الوصية وجعلتها مستمرة يخاطب بها كل مسلم في كل الأجيال وفي كل الأمصار.

أما من ناحية الدلالة فالتعبير بلفظ (أوصيكم) له معنى جميل، ففي لسان العرب : وصى الرجل ووصاه : عهد إليه وفيها معنى الفرض، والدليل على ذلك قوله تعالى: "ولا تَقْتُلوا النفسَ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقّ ذلكم وَصَّاكم به" الأنعام ١٥١ وهذا من الفرض المحكم علينا [٤].

وإذا كانت (أوصيكم) بمعي (أفرض) فإن التعبير بلفظ (أوصيكم) له لطائفه فالأمر جد خطير يتعلق بتقوى الله – تعالى – والسمع والطاعة لولاة الأمر فاهتماما بهذه الأمور تصدر الحديث الشريف بقوله: (يوصيكم) ؛ "لأن

(١) المستدرك ج١ص ٦١٤.

(٢) مكارم الأخلاق للطبراني ص ٣١٢دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط الأولى، ١٤٠٩ هـ.

(٣) مساوئ الأخلاق للخرائطي ص ١٦١. ت. الشيخ / مصطفى بن أبو النصر الشلبي. مكتبة السوادي للتوزيع، جدة ط: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

(٤) لسان العرب (وصي).

الوصاية هي الأمر بما فيه نفع المأمور وفيه اهتمام الآمر لشدة صلاحه؛ ولذلك سمي ما يعهد به الإنسان فيما يصنع بأبنائه وبماله بعد الموت، وصية"[1] فالفعل فيه معنى الشفقة والرحمة من الموصِي فالفعل (أوصيكم) يخاطب النفس بسكينة وهدوء، فالرسول – ﷺ – يوصينا؛ لأنه أب للأمة جمعاء حريص عليها رؤوف رحيم بها، فدلالة الفعل (أوصيكم) يشع منه كل هذه المعاني .

وجاء حرف الجر (الباء) المفيد للإلصاق ليقوى التلبس بالتقوي والسمع والطاعة في نفوس المخاطبين .

وبعد الإيصاء بتقوى الله – تعالى – أوصى – ﷺ – بالسمع والطاعة لولاة الأمر فقال : "**والسمعِ والطَّاعةِ وإنْ عَبْداً حبشيًّاً**"

وقد بنيت الوصية بالسمع والطاعة على أسلوب شرطي أداته "إن " داخله الحذف في كثير من أجزائه وتقدير الكلام : والسمع والطاعة وإن كان الخليفة أو الأمير عبدا حبشيا فاسمعوا وأطيعوا كما جاء صريحا في رواية أخرى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، وَأَطِيعُوا وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ"[2]

والغرض من هذا الأسلوب هو التأكيد والتشديد على طاعة ولي الأمر، وساهم في بناء هذا المعنى الإطلاق في (السمع والطاعة) ففي عدم التقييد دلالة على رحابة السمع والطاعة لولي الأمر، وأن الأصل هو السمع والطاعة له حفاظا على الأمة من الفتن و التفتت والضياع، وذكر (السمع والطاعة) من باب ذكر الخاص بعد العام؛ لأنهما من تقوى الله وإنما خصهما النبي – ﷺ – بالذكر لعظم أمرهما وأهميتهما في وقاية الأمة من المفاسد والفتن، فَبِهَما كما يقول ابن رجب الحنبلي: " تَنتَظِمُ مَصالِحُ الْعِبَادِ فِي مَعَايِشِهِمْ، وَبِهَما

(١) التحرير والتنوير ج ٤ ص ٢٥٦.
(٢) مسند أحمد ج ٤٥ ص ٢٣٨.

يَسْتَعِينُونَ عَلَى إِظْهَارِ دِينِهِمْ وَطَاعَةِ رَبِّهِمْ" [١] ولأجل هذه الأهمية وصى بهما النبي – ﷺ – في خطبة الوداع فأخرج التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ أُمِّ الْحُصَيْنِ الْأَحْمَسِيَّةِ، قَالَتْ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ»[٢]

وهذا الإطلاق مقيد بما قيده به النبي - ﷺ - حيث قال: (إنما الطاعة في المعروف)، يعني فيما يقره الشرع، وأما ما ينكره الشرع، فلا طاعة لأحد فيه حتى لو كان الأب أوالأم أو الأمير العام أو الخاص، فإنه لا طاعة له.[٣] كما أن قوله – ﷺ – : «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ...»؛ بعد الأمر بالسمع والطاعة لأولي الأمر؛ إشارة إلى أنه لا طاعة لأولي الأمر إلا في طاعة الله" [٤]

وجاءت (إن) الشرطية لتدل على التناهي في السمع والطاعة لولي الأمر وأرى أنها بمعنى "لو" وتلك الدلالة تبعد النص النبوي من دائرة التناقض؛ لأن من شرط الإمارة الحرية بل جاءت بعض النصوص لتجعل الأمر في قريش قال ﷺ: «لَا يَزَالُ هَذَا الْأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ فِي النَّاسِ اثْنَانِ»[٥]، فجاءت "إن" لتدل على أن السمع والطاعة للعبد الحبشي إنما هو على سبيل الفرض مبالغة في الأمر بالطاعة، قال الخطابي: "وقد يضرب المثل في الشيء بما لا يكاد يصح منه الوجود كقوله – ﷺ – : من بنى لله مسجداً ولو مثل مفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة، وقدر مفحص قطاة لا يكون مسجدا لشخص آدمي وكقوله: لو سرقت فاطمة لقطعتها وهي رضوان الله عليها وسلامه لا

(١) جامع العلوم والحكم ج٢ ص ١١٦.
(٢) سنن الترمذي ج ٣ ص ٢٦١.
(٣) ينظر : شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ج٢ ص ٢٧٨.
(٤)جامع العلوم والحكم ج٢ ص ١١٧.
(٥) مسند أحمد ج ٨ ص ٤٤٦.

يتوهم عليها السرقة، وقال : لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده ونظائر هذا في الكلام كثير"[١] و **قد ذكر سعد الدين التفتازاني أن (إن) تستعمل في المجالات المفروضة مثل "لو" قال رحمه الله :** "لا يقال: المستعمل في فرض المحالات ينبغي أن يكون كلمة –لو– كما في قوله تعالى: {وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} فاطر ١٤، يعني الأصنام دون (إن) لما مر من أن (إن) يشترط فيها عدم الجزم بوقوع الشرط أو لا وقوعه، والمحال مقطوع بلا وقوعه، فلا يقال: إن طار الإنسان كان كذا بل يقال: لو طار؛ لأنا نقول: إن المحال في هذا المقام ينزل منزلة ما لا قطع بعدمه على سبيل المساهلة، وإرخاء العنان لقصد التبكيت فمن هنا يصح استعمال "إن" فيه"[٢] فالسعد يرى أن "إن" تأتي في المقطوع بلا وقوعه لأغراض بلاغية والغرض البلاغي هنا هو التشديد على طاعة أولي الأمر وتحريم الخروج عليهم لما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة تقوض أركان الأمة، وتهدمها، فيحدث ما هو أنكر من ولاية العبد الحبشي .

وإذا كانت (إن) بمعنى (لو) فما السر في العدول عنها إلى "إن" ؟ أقول: إن السر البلاغي للعدول هو أن المعنى بـ(إن) له نصيب من الواقع إذ ربما تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة؛ فإن طاعته تجب إخماداً للفتنة ما لم يأمر بمعصية[٣] بخلاف (لو) التي تجعل الكلام لا يتعدى دائرة الفرض .

وقد داخل الحذف كل أجزاء أسلوب الشرط فلم يبق منه إلا أداة الشرط "إن" و مفعول فعل الشرط "عبدا حبشيا" وللإيجاز بالحذف في البيان النبوي حضور قوي؛ لأن الإيجاز قوة في التعبير وامتلاء في اللفظ، وشدة في التماسك،" وهذه

(١) معالم السنن. الخطابي ج٤ ص ٣٠١.

(٢) المطول.سعد الدين التفتازاني ص ٣٢١. الكتب العلمية – بيروت ط الثالثة ٢٠١٣م – ١٤٣٤هـ.

(٣) ينظر: فتح الباري ج١٣ ص ١٢٢.

صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح، وقوة الشعور، وهذه القوي كلها علي أكمل ما تكون في الرسول . ﷺ . لذلك كان الإيجاز هو الغالب علي أسلوبه"(١).

والسر البلاغي الذي ينسحب علي كل هذه المحذوفات هو الإشعار بإهمال المحذوفات والضن بذكرها؛ لأن إمارة العبد الحبشي ليس أصلا، فإن ذكره هنا إنما على سبيل الفرض والتقدير، كما أن في الإيجاز تصفية للعبارة وشدا لأسرها وتنشيطا للذهن، فيحلق الخيال في سماء الإيجاز لاقتناص المعاني والأسرار " فما مِن اسْمٍ أو فعلٍ تَجدُه قد حُذِفَ، ثم أُصيبَ به موضعُه، وحُذِفَ في الحال يَنْبغي أن يُحذَفَ فيها، إلاَّ وأنت تَجدُ حذْفَه هناك أَحْسَنَ من ذكرِه، وترى إضمارَهُ في النفس أَوْلى وآنسَ مِنَ النُّطْقِ به ".(٢)

وقد ساعد الحذف على التركيز على المذكور (عبدا حبشيا)، وجعله ملء السمع والبصر حتى لا ينشغل الذهن إلا بالمذكور، والحذف فيه تعويل علي ذكاء السامع وقوة بديهته في فهم مراد النبي . ﷺ . كما أن مجئ الأسلوب علي هذا النحو فيه من الحسم والقوة مالا نجده مع ذكر المحذوفات، وقد أحدث الحذف قدرا كبيرا من اللفت والانتباه إلى هذا المذكور (عبدا حبشيا) إذ يتجلى فيه قمة العدالة الإسلامية، وأن الإسلام تذوب على عتباته كل الفروق الجنسية والقبلية والطبقية فلا فرق بين أعجمي وعربي إلا بالتقوى والعمل الصالح .

ثم بين النبي – ﷺ – سبب الوصية بتقوى الله والسمع والطاعة لولي الأمر حتى ولو كان أدنى خلقة فقال: " **فإنَّه من يَعِشْ منكم بَعْدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً** "

وأول ما يلاحظ في هذا الأسلوب، هو ربط معاقد الكلام بـ " الفاء "، وفيها معنى السببية، فهذا الأسلوب مسبب عما قبله، وليس مستقلا عنه، ومجئ

(١) البيان النبوي د / محمد رجب البيومي. صـ٧٥.
(٢) دلائل الإعجاز ص ١٥٢.

السبب بعد الأمر بالشئ ألزم لإقناع المخاطب بإتيان ما أُمر به، وقد جاء هذا التعليل في قالب مؤكد أتم تأكيد، فـ " الفاء " إذا سبقت " إنّ " فإن الدلالة على التعليل تكون أقوى وآكد، وذلك لالتقاء رافدين من روافد العلّية "الفاء" و"إنّ"، وكل منهما يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرا دلاليا آخر غير الذي يعطيه الآخر له، "فالفاء" تشرب التعليل معنى التعقيب مثلما تشرب "إنّ" التعليل معنى التوكيد، فيجمع التعليل المنبعث من " فإنَّ" معنيين: التعقيب والتأكيد [١].كما أدت الفاء و" إن " دورهما في سبك النظم فبسببهما شُدت أجزاء البيان النبوي فأصبح متآخيا يتلاقى بعضه مع بعض في تسلسل بديع .

ومِنْ فوائد" إنَّ" مجيء ضمير الشأن معها وله من حسن الموقع، وجودة النظم، ورشاقة التأليف، ما لا يمكن وصفه؛ لأن ضمير الشأن والقصة – بما فيه من الإبهام – يشوق السامع إلى البيان الذي يتكفل به المسند وذلك من دواعي التمكنِ؛ لأنّ السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون فيتمكن المسموع بعده فضل تمكن في ذهنه، ومن فوائد هذا الضمير الدلالةُ على تعظيم المخبر عنه وتفخيمه، بأن يذكر أولاً مبْهَماً ثم يفسر [٢] وضمير الشأن والقصة يعد مخالفة لمقتضى الظاهر؛ لأن الأصل ألا يذكر الضمير إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحا، تقول: لقيت زيدا وأكرمته، فتذكر الضمير في أكرمته؛ لأنه سبقه ما يعود عليه، ولا تقول لقيته هكذا ابتداء؛ لأن ذلك ضرب من التعمية، والإلباس يناقض

(١) ينظر : سبل الاستنباط من الكتاب والسنة. د / محمود توفيق سعد. صـ٨٧. مطبعة الأمانة، القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢) ينظر : الطراز. يحيى بن حمزة العلوي ج٢ ص و١١٧ المكتبة العنصرية – بيروت ط الأولى، ١٤٢٣ هـ و معترك الاقران في إعجاز القرآن ج٣ ص ٤٦٨ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط الأولى: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م و اساليب بلاغية د/ أحمد مطلوب ص٢٤٨وخصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية / عبدالعظيم المطعني ج٢ ص ٨٣ مكتبة وهبة ط أولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م

القصد من اللغة والبيان، ومع وضوح هذا الأصل تجد صورًا من الأساليب بنيت على خلافه، فيذكر الضمير ليفسر بمتأخر عنه كما في ضمير الشأن والقصة، والأساليب التي تصاغ على هذه الطريقة حين تصيب مواقعها تجد لها مذاقا حسنا ووقعا جليلا؛ لأن الضمير حين يطرق النفس من غير أن يكون له عائد يعود عليه يصيرها إلى حالة من الغموض، والإبهام لا قرار لها معها، فتستشرف إلى اكتشاف الحقيقة المتوارية وراء الغموض المثير، فإذا جاءت الجملة المفسرة تمكن معناها، ووقع في القلب موقع القبول، وتراهم لا يبنون الكلام على هذا الأسلوب إلا في المعاني المهمة التي يهيئون النفوس لتلقيها(١)

فبعد الوصية بالتقوى والسمع والطاعة لولي الأمر حتى ولوكان عبدا من الحبش يأتي التعليل مشتملا على ضمير الشأن والقصة " فإنه" فتتعلق النفس بحال هذا الضمير وقصته فإذا جاء التفسير **(من يَعِشْ منكم بَعْدي فسَيَرى اختلافاً كثيراً فعليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ، الرَّاشدينَ المَهديّينَ)** وقع في النفس وتمكن في القلب والمعنى جد خطير يحتاج إلى هذه الصياغة الأسلوبية اللافتة إذ فيه تحصين للأمة بعده – ﷺ – من الفتن والحث على الالتجاء إلى السنة عند الاختلافات فهي سفينة نوح – عليه السلام– لمن أراد النجاة .

ولأن المعنى عام لكل الأمة ناسب ذلك أن تكون أداة الشرط "مَن" الشاملة لكل الأناسي في كل الأزمان وقد صيغت جملة الشرط بإحكام ففعل الشرط (يعش) مضارعا دالا على الاستقبال وجاء تقديم الجار والمجرور (منكم) لأنه أوثق صلة بغرض الكلام فالحديث ليس عن عيش بعده – ﷺ– وإنما عن عيش الأمة من بعده فالبيان النبوي إنما سيق من أجلهم ، وكلمة(بعدي) لها وقعها والمحقق عند البلاغيين أن كل كلمة في تركيب بليغ بله النبوي، يجب أن يكون لها أثر في المعنى وإلا كانت حشوا لا فائدة فيه،

(١) ينظر : خصائص التراكيب ص ٣٤١ وما بعدها.

وإذا كان هذا يقبح في أساليب البلغاء، فكيف نقبل به في كلام سيد البلغاء المصطفى – ﷺ – يقول الإمام عبد القاهر موضحا أصالة كل لفظ في أداء المعنى في التراكيب البليغة، يقول . رحمه الله . : " وهكذا يكون الأمر أبدا كلما زدت شيئا وجدت المعنى قد صار غير الذي كان " [1]. فكلمة (بعدي) تدل على أن هذا الاختلاف سيكون سببه الأول هو موت رسول الله – ﷺ – بأبي هو وأمي – وهذه البعدية تسلم إلى قناعة التحصن بسنته – ﷺ – وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين .

وقوله : (فسيرى اختلافا كثيرا) جواب الشرط فرؤية الاختلاف الكثير مترتب على العيش بعد وفاته – ﷺ – والفاء وإن كانت داخلة على الجواب لأنه لا يصلح أن يكون شرطا ، إلا أنها تدل على سرعة وقوع الاختلاف بعد موت النبي – ﷺ –، ويقوي هذه الدلالة مجيء (السين) دون (سوف) يقول ابن يعيش: «معناها التنفيس في الزمان، فإذا دخلا على فعل مضارع خلصاه للاستقبال، وأزالا عنه الشياع، إلا أن (سوف) أشد تراخيا في الاستقبال من السين وأبلغ تنفيسا»([2]). فالسين مشعرة بقصر مدة التنفيس على سبيل تقريب خبر وقوع الاختلاف أخذا للأهبة وتوطين النفس على الاستعداد لوقوع هذا الاختلاف القريب ، وهذا من دلائل نبوَّته – ﷺ– حيث أخبر عن أمر مستقبَلي وقع طبقاً لِمَا أخبر به – ﷺ –، فسرعان ما وقعت الفتنة بين المسلمين وظهرت طوائف تنهش في ثوابت الإسلام وعقيدته .

والرؤية هنا وإن كانت رؤية علمية إلا أنها دلت على كثرة الاختلافات الصائرة بعد رسول الله – ﷺ – في القرآن الكريم وفهمه وأحكامه، وكذلك سنته والاختلاف حولها وما يترتب على كل ذلك من اختلاف في العقيدة والعمل

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٨٩.
(٢) شرح المفصل ج ٨ ص ١٤٩.

وسائر مناحي الحياة ، فقد بلغ الاختلاف مبلغا عظيما حتى كأنه يرى رأي العين .

ثم يضع النبي – ﷺ – الترياق الشافي لأمته والواقي لها من الفتن وذلك في قوله : "**فعليكُم بسنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاءِ، الرَّاشدينَ المَهديّينَ** "

والفاء تدل على السببية وأن ما بعدها مسبب عما قبلها وهذا أدعى للالتزام والتمسك بما يأتي بعد الفاء وقوله : "عليكم " اسم فعل أمر بمعنى (الزموا) و اسم الفعل أقوى من الفعل وأقدر وأجدر في تأدية المعنى لأن اسم الفعل يؤدي المعنى مع المبالغة فيه، ف"عليكم" أمر بشدة لزوم السنة؛ ويبين الطاهر ابن عاشور وجه الأبلغية والقوة في التعبير باسم فعل الأمر فيذكر أن أصل (عليكم) أن يقال: عليك أن تفعل كذا، فتكون جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر وتكون "على" دالة على استعلاء مجازي، كأنهم جعلوا فعل كذا معتليا على المخاطب ومتمكنا منه تأكيدا لمعنى الوجوب .ثم كثر الاستعمال فعاملوا "على" معاملة فعل الأمر فجعلوها بمعنى أمر المخاطب بالملازمة ونصبوا الاسم بعدها على المفعولية.(١)

فقوله – ﷺ – : (فعَلَيْكُمْ بسنتي) معناه الزموا سنتي واحرصوا عليها فالقصد باسم فعل الأمر (عليكم) هو ملازمة الاهتداء والتحصن بالسنة النبوية، وجاء حرف الجر" الباء" مع أن اسم الفعل قد يأتي بدونها فيقال: "فعليكم سنتي" كما جاء في قوله تعالى ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴿١٠٥﴾ ﴾ المائدة: ١٠٥ إلا أن مجيء "الباء" المفيدة للإلصاق جعلت هذا اللزوم للسنة على أوثق وآكد ما يكون.

ولم يأت ذكر لاتباع الكتاب لأن السنة تشمل ذلك فهي:، الطَّرِيقَةُ الْمَسْلُوكَةُ، فَيَشْمَلُ ذَلِكَ التَّمَسُّكَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ هُوَ وَخُلَفَاؤُهُ الرَّاشِدُونَ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ، وَهَذِهِ هِيَ السُّنَّةُ الْكَامِلَةُ، وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ

(١) ينظر: التحرير والتنوير ج ٥ ص ٢٤٠.

قَدِيمًا لَا يُطْلِقُونَ اسْمَ السُّنَّةِ إِلَّا عَلَى مَا يَشْمَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَرُوِيَ مَعْنَى ذَلِكَ عَنِ الْحَسَنِ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَالْفُضَيْلِ ابْنِ عِيَاضٍ.(١) ثم مما هو معلوم بداهة أن رسول الله أمر في أحاديث كثيرة لا حصر لها بتعلم القرآن الكريم والأخذ به فالأخذ بالسنة ولزومها يقود حتما إلى القرآن الكريم وتمام الاقتناع بهذا هو النظر في البيان النبوي ليقف على مكانة القرآن الكريم فيه ويكفي لمعرفة ذلك مارواه سيدنا على – ﷺ– قال: "أَمَا إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ : أَلا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ وَهُوَ الفصل لَيْسَ بِالْهَزْلِ مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ وَلا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ "(٢).

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ : "مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشُر الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُل مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُل بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ وَكُل ضَلالَةٍ فِي النار "(٣)

فالأخذ بالسنة أخذ بكتاب الله فهما متلازمان لا يفترقان أبدا، وأرى أن الحديث عن الاختلاف الكثير في هذا البيان النبوي له دوره في فهم سبب الاقتصار

(١) جامع العلوم والحكم ج٢ ص ٢٨٢.
(٢) سنن الترمذي ج٥ ص ١٧٢.
(٣) مسند أحمد ج ٢ ص٨٦٥.

على ذكر السنة إذ فيه إشارة إلى أن الاختلاف سيكون ميدانه السنة وأن الرجوع إليها خاصة سيكون له عظيم الأثر في معالجة هذه الاختلافات .

وتأكيدا على اتباع سنته – ﷺ – والأخذ بها قال: " **وسنة الخلفاء الراشدين المهديين**"

وَالْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ الَّذِينَ أَمَرَالنبي – ﷺ – باتباع سنتهم هُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَنَصَّ كَثِيرٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ عَلَى أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَلِيفَةٌ رَاشِدٌ أَيْضًا وَقِيلَ: بَلْ هُمْ وَمَنْ سَارَ سِيرَتَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْأَحْكَامِ فَإِنَّهُمْ خُلَفَاءُ الرَّسُولِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – فِي إعْلَاءِ الْحَقِّ وَإِحْيَاءِ الدِّينِ وَإِرْشَادِ الْخَلْقِ إلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ [1]

وأرجح هذا الرأي فلا يستحق لقب (خليفة) إلا من اتبع النبي – ﷺ – وجعله قدوته في الحكم وإقامة الدين الحنيف وسار سيرته في كل أمره، ولذلك كانوا أهلا لهذا الوصف :"الراشدين المهديين" والرشد هو نقيض الضلال، إذا أَصاب وجه الأَمر والطريق و قيل: هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سبيل السداد من غير إشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد وتأكيدا على هذا المعنى جاء الوصف "الْمَهْدِيِّينَ" لأن الراشد لا محالة مهدي من الله فقوله: "المهديين" "صفة مؤكدة لما سبق، لأنه يلزم من كونهم راشدين أن يكونوا مهديين؛ إذ لا يمكن رشد إلا بهداية، وعليه فالصفة هنا ليست صفة احتراز ولكنها صفة توكيد وبيان علة، يعني أنهم رشدوا لأنهم مهديون" [2] فقد قدم النبي – ﷺ– في وصفه (الخلفاء) بـ(الراشدين المهديين) حيثيات الالتزام بسنة الخلفاء فهم خلفوا الرسول – ﷺ – في كل سيرته وكانوا راشدين مهديين .

"وإنما ذكر سنتهم في مقابلة سنته؛ لأنه علم أنهم لا يخطئون فيما يستخرجونه من سنته بالاجتهاد، ولأنه – ﷺ – عرف أن بعض سنته لا تشتهر

(١) جامع العلوم والحكم ج٢ ص ١٢٢.
(٢) شرح رياض الصالحين.ابن عثيمين ص ٢٧٧.

إلا في زمانهم، فأضاف إليهم دفعا لتوهم من ذهب إلى رد تلك السنة، فأطلق القول باتباع سنتهم سدا لهذا الباب."[١]

وتأكيدا على الالتزام بسنته وسنة الخلفاء الراشدين جاء قوله – ﷺ: " **تَمَسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ**"

وقد جاءت هذه الجملة " تمسكوا بها " مفصولة عما قبلها لكمال الاتصال فهذه الجملة مؤكدة لقوله – ﷺ – :" فعليكم بسنتي " فالنبي – ﷺ – يترقى في طلب الأخذ بسنته من الالتزام بها إلى التمسك باليد بها إلى العض عليها بالنواجذ فبلغ الغاية في طلب الأخذ بالسنة والحرص عليها ، قال الخطابي: "والنواجذ آخر الأضراس واحدها ناجذ، وإنما أراد بذلك الجد في لزوم السنة فعل من أمسك الشيء بين أضراسه وعض عليه منعاً له أن ينتزع وذلك أشد ما يكون من التمسك بالشيء إذ كان ما يمسكه بمقاديم فمه أقرب تناولاً وأسهل انتزاعاً، وقد يكون معناه أيضاً الأمر بالصبر على ما يصيبه من المضض في ذات الله كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه"[٢]. وفي التعبير النبوي استعارة تمثيلية "شَبَّهَ حَالَ الْمُتَمَسِّكِ بِالسُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ بِجَمِيعِ مَا يُمْكِنُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُعِينَةِ عَلَيْهِ بِحَالِ مَنْ يَتَمَسَّكُ بِشَيْءٍ بِيَدَيْهِ ثُمَّ يَسْتَعِينُ عَلَيْهِ بأسنانه اسْتِظْهَارًا لِلْمُحَافَظَةِ عليه " [٣] بجامع شدة التمسك وقوته في كل ثم استعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية، والقرينة حالية.

وكل هذا التأكيد في الأخذ بالسنة والتمسك بها حتى العض عليها يدل على أن أعداء الإسلام لن يملوا في محاربة هذه السنة حتى تتفلت من بين المسلمين وتندثر معالمها، فكل هذا الحث على لزوم السنة يدل على أن المستقبل القريب يخبيء حربا ضروسا ضد السنة يستلزم من الأمة أخذ السنة بقوة وهمة .

---

(١) شرح الطيبي ج ٢ ص ٦٣٤.
(٢) معالم السنن ج ٤ ص ٣٠٠.
(٣) مرقاة المفاتيح ج ١ ص ٢٥٣.

وتأكيدا على الترغيب في السنة والأخذ بها، جاء تحذير النبي – ﷺ– من البدعة؛ لأن الموضوع جلل والتهديدات خطر، فكان هذا التحذير النبوي ليجمع في بيانه بين الترغيب والترهيب تحصينا للأمة من أتون هذه الفتن فقال: "**وإيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمورِ، فإن كُلَّ مُحدَثَةٍ بدْعَةٌ، وكل بدعَةٍ ضَلالةٌ**"

وحاجة المسلم لما يرغبه في فعل المأمور به، ولما يرهبه من فعل المحظور، ضرورية وملحة، وضرورتها نابعة من فهم واقعي للنفس البشرية ؛ لأن هذه النفس في ميلها إلي الدنيا كما يقول أبو الفرح ابن الجوزى : " كالماء الجاري فإنه يطلب الهبوط، وإنما دفعه إلي فوق يحتاج إلي التكلف ولهذا أجاب معاون الشرع بالترغيب والترهيب ليقوي جند العقل " (١) .

وقد حذر النبي – ﷺ – من محدثات الأمور من خلال إحدى صور أسلوب التحذير وهي الصورة المبدوءة بالضمير " إياك " وهذا الضمير مفعول به لفعل محذوف وجوبا ولا يجوز إظهاره؛ لأنه لما كثر التحذير بهذا اللفظ جعلوه بدلًا من اللفظ بالفعل، والداعي البلاغي للحذف هو، أن يفرغ المتكلم سريعا من لفظ التحذير حتى يأخذ المخاطب حذره من ذلك المحذور، وذلك لأنه لا يستعمل هذه الألفاظ إلا إذا شارف المكروه أن يرهق.(٢) ويذكر السيوطي أن داعي الحذف في باب التحذير والإغراء هو" التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ يَتَقَاصَرُ عَنِ الْإِتْيَانِ بِالْمَحْذُوفِ وَأَنَّ الِاشْتِغَالَ بِذِكْرِهِ يُفْضِي إِلَى تَفْوِيتِ الْمُهِمِّ "(٣)

(١) صيد الخاطر لأبي الفرج ابن الجوزى صـ١٢ ت. د/ السيد محمد السيد و أ. / سيد إبراهيم. دار الحديث القاهرة ط الثانية.

(٢) ينظر : شرح الصبان على شرح الأشموني ج ١ ص ٢٧٧ وشرح الرضي ج١ ص ٤٨٣ والنحو الوافي ج ٤ ص ١٢ .ومعاني النحو د/ فاضل السامرائي ج٢ ص ٩٣.

(٣) الإتقان في علوم القرآن. السيوطي. ج ٣ ص ١٩٠ ت. أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

فالنبي – ﷺ – يحذر الأمة من محدثات الأمور بأوجز أسلوب مسارعة منه – ﷺ – على التحذير مما فيه هلاك الأمة، فمقتضى مجيء الضمير "إياكم" يجعل المتلقي على شوق لمعرفة المحذر منه الذى يوقعه النبي – ﷺ – سريعا بعد أن اختصر له الكلام اختصارا تنبيها على خطورة المحذر منه "محدثات الأمور" وهي ما أُحدِث وابتُدع في الدِّين مِمَّا لم يكن له أصل فيه، وهو يرجع إلى الاختلاف والتفرُّق المذموم الذي ذكره النَّبيُّ – ﷺ– بقوله: "فإنَّه مَن يَعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً"(١)

وزيادة في التحذير والتنفير من هذه المحدثات أتبع التحذير ببيان العلة المقنعة: "**فإن كُلَّ مُحدَثَةٍ بدْعَةٌ، وكل بدعَةٍ ضَلالةٌ**"

والفاء سببية دلت على أن سبب التحذير من هذه المحدثات هو أن هذه المحدثات بدعة وجاءت "كل" المفيدة للعموم لتستغرق كل أفراد المحدثات في الحكم عليها بكونها بدعة، وأكد المعنى ب"إن " تقريرا للمعنى في النفوس "والبدعة هي إيجاد شيء ليس له نظير في الشرع، ولم يعرفه الصدر الأول عمن له حق التشريع من كتاب الله، أو سنة رسول الله – ﷺ– أو الخلفاء الراشدين."(٢)

وقد ورد عن ابن المبارك أنه قال: "من ابتدع بدعة في الإسلام فقد خون رسول الله في الرسالة؛ لأن الله تعالى يقول: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا } [المائدة:٣]، فبعد الإكمال والإتمام من الذي يدعي النقصان؟! فـ مالك رحمه الله يرى أن من ابتدع في الدين شيئاً وقال: هذا حسن اعملوا به، أو خذوه عني، ولم يكن لهذا الأمر سلف عن رسول الله – ﷺ– ولا عن خلفائه، فإنه يكون ابتداعاً جديداً في دين الله،

(١) فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله د/ عبد المحسن بن حمد العباد البدر. ص ٩٨ . دار ابن القيم، الدمام المملكة العربية السعودية.ط الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

(٢) السابق والصفحة .

والآتي به يلزمه أنه خون رسول الله – ﷺ – في البلاغ؛ لأن الله قال: (أَكْمَلْتُ لَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) المائدة ٣، وليس بعد الكمال إكمال، ولا بعد الإتمام إتمام، فالدين قد كمل، فإذا جاء إنسان وقال: خذوا بهذا، فمعنى ذلك: أنه بقي في الدين ثلمة، وهذه تتمتها! فيتعارض مع (أَكْمَلْتُ) و (أَتْمَمْتُ) "[١].

وتتميما للتنفير من البدع والأخذ بالسنن كان هذا الحكم العام الذي أكد على كل ما سبق فكان أحسن ختام وهو قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وكُلّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» وهذا يسلمنا إلى أن كل محدثة في دين الله ضلالة فلماذا لم يأت الكلام ابتداء.

" وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة ضلالة " ؟! لأن مقتضى التنفير من هذه المحدثات جعل النظم يأتي على هذا النسق فوصفها بالبدعة أولا وهذا كاف في التنفير إلا أن النظم بلغ منتهاه في التبشيع فجعل عموم البدع ضلالا فلا خير فيها ولا هدى بل هي ضياع الدين فلاطابت الدنيا لمبتدع ولا سلمت له الآخرة .

فهذا الحديث النبوي تتابعت جمله وأساليبه لتحصن الأمة وتضمن له سبل السلام فكانت هذه الجملة التي هي من جوامع كلمه – ﷺ – : " أوصيكم بتقوى الله" فكل ما جاء بعدها تفصيل لها فالسمع والطاعة لولي الأمر والأخذ بسنته وسنة الخلفاء الراشدين وترك البدع كل ذلك مرده إلى تقوى الله وقد جاءت الجمل على الوجه الذي اقتضاه جمال النظم فتناسقت الدلالات وتلاقت المعاني "لأنه نظمٌ يعتبرُ فيه حالُ المنظوم بعضهُ معَ بعضٍ، وليسَ هو "النَّظم" الذي معناهُ ضمُّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتَّأليفِ والصياغةِ والبناءِ والوَشْيِ والتحبير وما أَشبَه ذلك، مما يُوجب اعتبارَ الأجزاءِ بَعْضِها معَ بعضٍ، حتى يكونَ لوضعِ كلِّ حيثُ وُضع، علةٌ تَقْتَضي كونَه هناك، وحتى لو وُضِع في مكان غيره لم يصلح"[٢] ولا نملك أمام هذا النمط العالي من النظم إلا أن نَقْضِي له – ﷺ – بالحذق والأستاذية . وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير.

(١) شرح الأربعين النووية الشيخ : عطية سالم ج ١ ص ١١.
(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٩.

الحديث الثالث

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1] **صدق رسول الله – ﷺ – .**

هذا الحدث الشريف نص في وجوب طاعة الرسول – ﷺ – وحث عليها وترغيب فيها إذ جعل معراج الوصول للجنة طاعة الرسول – ﷺ – ومن عصاه فهو في حكم من امتنع بنفسه عن دخول الجنة وقد بدأ النبي – ﷺ – هذه البشرى النبوية بهذه الجملة : "**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ**"

وهذه الكلمات تصغي لها الآذان و تفتح لها القلوب وتشرح لها النفوس ففيها براعة استهلال وحسن ابتداء لايقدر اللفظ على وصفه؛ إن الجملة النبوية بشرى عامة لكل الأمة بدخول الجنة، وقد صيغت صياغة مبدعة فهي جملة مؤكدة باسمية الجملة، و تقديم المسند إليه (كل أمتي) على الخبر الفعلي (يدخلون الجنة) يفيد تقوية الحكم وتأكيده ويبين الإمام عبدالقاهر سبب هذه الإفادة فيقول: "لأنه لا يُؤتى بالاسم مُعَرًّى منَ العوامل إلاَّ لحديثٍ قد نُويَ إسنادُه إليه، وإذا كان كذلك، فإن قلت: "عبد الله"، فقد أشعرت قبله بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه، فإذا جئتَ بالحديث فقلت مثلاً: "قامَ" أو قلتَ: "خرجَ"، أو قلتَ: "قَدِمَ" فقد عُلم ما جئتَ به وقد وطَّأْتَ له وقدَّمتَ الإعلام فيه، فدخلَ على القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأتقى للشُّبهة، وأَمنعُ للشكِّ، وأدخلُ في التَّحقيق، وجملةُ الأمر أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له، لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام.

---

(١) صحيح البخاري ك الاعتصام بالكتاب والسنة. ب. بَابُ الِاقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ– ج٩ ص ٩٢ ومسند احمد ج ٨ ص ٤٠١ وصحيح ابن حبان ج١ ص ١٩٧ واللفظ للبخاري.

ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار"[(١)].

فقول النبي صلى الله عليه : (كل أمتي) كفيل بجعل المتلقي على شوق لمعرفة الخبر فإذا ما جاء تأكد وثبت، خاصة أن الخبر عام يخص الأمة جمعاء، بدلالة (كل) وهي أقوى صيغ العموم وسيدتها؛ لأنها تشمل العاقل وغير العاقل، من حيوان أو من جماد، مذكرا أو مؤنثا، مفردا أو مثنى أو جمعا، فكلمة " كل " تعم الأفراد عموم الاستغراق، وعموم الاستغراق معناه ألا يبقى فرد من الأفراد إلا تناوله الحكم المنوط بـ(كل)[(٢)] فإذا جاء قوله – ﷺ– : (يدخلون الجنة) تمكن في النفس لأنه صادف نفسا مهيأة وقلبا متيقظا مشتاقا وهذا بيان لسبب إفادة الجملة الاسمية التأكيد.

وإضافة الأمة لضمير النبي – ﷺ – فيه تشريف لها وطمأنة بأن الخبر عنها لن يكون إلا ما يسر، كيف وقد ضمها النبي – ﷺ – له فنشر عليها من عطفه ورحمته وحفظه ؟!

وأُمَّةُ النَّبِيِّ – ﷺ – أُمَّتان: أمَّة الدعوة و يدخل فيها اليهود والنصارى، وكلُّ إنسيٍّ وجِنِّي من حين بِعثة الرسول – ﷺ – إلى قيام الساعة. وأمَّةُ الإجابة: وهم الذين دخلوا في هذا الدِّين[(٣)] وذكر بعض أهل العلم أن المراد بالأمة هنا أمة الدعوة لا أمة الإجابة [(٤)]، وأرى أن الأمة هنا هي أمة الإجابة، فالخطاب

(١) دلائل الإعجاز ص ١٣١ وما بعدها.

(٢) ينظر : البحر المحيط، ١/٦٢ و العقد المنظوم في الخصوص والعموم. شهاب الدين القرافي. ج١ ص ٣٦٦ ت. د/أحمد الختم عبد الله. المكتبة المكية – دار الكتبي. مكة المكرمة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م. و دراسات في علوم القرآن. د/فهد الرومي ص ٤١٠.مكتبة الملك فهد الوطنية. ط الرابعة عشرة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م.

(٣) التحذير من تعظيم الآثار غير المشروعة د / عبد المحسن بن حمد العباد البدر ص ٢١ الدار الحديثة مصر ط. الأولى ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م

(٤) ينظر : التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ أبو إبراهيم الصنعاني ج٨ ١٦٠ ت: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم: مكتبة دار السلام، الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

للمؤمنين؛ لأن النبي – ﷺ – أضاف الأمة لنفسه، وبدليل رواية ابن حبان : "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتَدْخُلُنَّ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ**" (١) فالخطاب للمؤمنين الذين آمنوا به واتبعوه .

وجملة الخبر (يدخلون الجنة) أعطت المعنى في هيئة تصويرية من خلال دلالة الفعل المضارع (يدخلون) فأرانا المؤمنين الطائعين وهم يزفون إلى الجنة، و هذا أدعى لطاعة النبي – ﷺ – والامتثال لأوامره .

ودلالة الحال تدل على أن ذلك كائن يوم القيامة، وهذا ما صرحت به رواية الإمام أحمد : "**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُون الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"

ف " أل" في الجنة " للعهد "، أي جنة الآخرة التي حدثهم النبي . ﷺ . عنها، وما فيها من نعيم لم تره العيون، ولم تسمع به الآذان، ولم يخطر علي قلوب البشر، وهناك ارتباط قوي بين الدلالة اللغوية لهذا الاسم " الجنة " وبين جعله " علما " علي نعيم الله الأخروي، فأصل الكلمة" جَنَنَ " وكلها يدور حول معني واحد هو " الستر "، يقال : جنَّه الليل " أي " ستره " والبستان الكثيف الأشجار يسمي" جنة "لأنه يستر من يدخله، و " الجن " سموا كذلك، لأنهم مستورون عن العيون، و"الوليد" ما دام في بطن أمه "جنين" لأنه مستور لا يراه أحد(٢) وعليه فأصل معني كلمة " الجنة " الستر، ويربط الأصفهاني بين المعني اللغوي، والدلالة العرفية للفظ الجنة فيقول : وإنما سميت الجنة بذلك إما تشبيها بجنة الأرض، أو لأن الله ستر عنا النعيم المشار إليه، بقوله: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ ﴾ السجدة: ١٧(٣) وألمح معني الستر في " جنة الخلد " في كونها أعظم ستر يناله

(١) صحيح ابن حبان ج١ ص ١٩٧.
(٢) المفردات في غريب القرآن صـ١٠٥.
(٣) ينظر: السابق والصفحة.

الإنسان، فمن دخل الجنة، فقد ستره الله في يوم تبيض فيه وجوه وتسود فيه وجوه .

ويأتي الاستثناء في قوله – ﷺ – (إلا من أبى) فالمتلقي استبشر خيرا بالجملة الأولى التي جعلت الأمة كلها تدخل الجنة ولكن عندما يسمع أداة الاستثناء " إلا" يقلق ويصيبه ما أصابه ويراجع نفسه ويسائلها من هذا المحروم ؟ ليعرفه فيبتعد عن فعاله وأخلاقه إن المحروم هو الذي جر ذلك على نفسه، وما أجمل أن يقول النبي – ﷺ – : "**إِلَّا مَنْ أَبَى**"

و(أبي) بِفَتْح الْهمزَة وَالْمُوَحَّدَة من عصى مِنْهُم بترك الطَّاعَة الَّتِي هِيَ سَبَب لدخولها لِأَن من ترك مَا هُوَ سَبَب لشئ لَا يُوجد بِغَيْرِهِ فقد أَبى أَي امْتنع فاستثناؤهم تَغْلِيظًا عَلَيْهِم وزجراً عن المعاصي[1] ففي (أبى) مجاز مرسل علاقته السببية حيث عبر بالسبب وهو الامتناع عن الدخول وأراد المسبب وهو عصيان الرسول – ﷺ –، والتعبير النبوي (من أبى) يحمل دلالة عميقة فالذي لا يدخل الجنة بسبب عصيانه وعدم التزامه في حكم من رفض الدخول ؛ لأن الالتزام بالسنة مغنم وليس مغرما، ومعنى عدم دخوله الجنة يَعْنِي لَا يدْخل فِي أول الْحَال إلا من شاء الله تعالى؛ لأن المسلم العاصي لا يخلد في النار[2]

وفي رواية ابن حبان بزيادة (وشرد على الله كشراد البعير) وقد أظهرت هذا الآبي في صورة من لا يعقل فعالم الحيوان أولى به، وهذا ما تدل عليه الاستعارة التصريحية التبعية في قوله "شرد" . قال ابن الأثير :" شَرَد البعير

(١) ينظر: شرح الطيبي ج٢ ص ٦٠٦ والتيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ج ٢ ص ٢١١ مكتبة الإمام الشافعي – الرياض الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: عمدة القاري ج ٢٥ ص ٢٧. و محبة الرسول بين الاتباع والابتداع د/ عبد الرءوف محمد عثمان ص ١١٦الناشر: إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد إدارة الطبع والترجمة – الريا ض ط : الأولى، ١٤١٤هـ

يَشرُدُ شُرُودا وشِراداً إذا نَفَر وذهَب في الأرض "[١] فقد شبه خروج المسلم عن طاعة الله و رسوله – ﷺ – بالشرود بجامع شدة النفور وقد رسمت الاستعارة صورة منفرة لهذا الآبي وأظهرته مسلوب العقل والفكر لأن "من لم يدخل الجنة فإنه ما أتى إلا من قبل نفسه وكأنه لا يعقل نفعه من ضره " [٢] وتعدي الفعل (شرد) بحرف الجر (على) يعطي دلالات ثرة ففيه معني الجرأة والتكبر على (الله) سبحانه؛ لأن المسلم الحق يفر إلى الله – تعالى – أما هذا المحروم فينفر من هذا الهدي النبوي ويتفلت منه، وتأكيدا على هذا المعنى شبه هذا الشرود بشرود البعير " في قوة نفاره وحدة فراره لأن من ترك التسبب إلى شيء لا يوجد بغيره فقد أباه ونفر عنه والإباء شدة الامتناع وخص البعير لأنه أشد الحيوانات نفارا فإذا انفلت لا يكاد يلحق"[٣]

ولأن الصحابة حريصون على الجنان وطاعة رسول الرحمن، ومجانبة أصحاب الأهواء كان هذا الاستفهام الذي يحمل قدرا عاليا من الاستغراب: **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى ؟**

ونداء الصحابة للرسول – ﷺ – يبين مدى تعلق الصحابة بمعرفة هذا الآبي ونداء الرسول بصفة الرسالة فيه إذعان وتسليم وطاعة للرسول – ﷺ– وكأنهم – رضي الله عنهم – ينفون عن أنفسهم أي صلة بهذا الآبي فهم في كنف الإيمان والطاعة للرسول – ﷺ – ولذلك كانت إجابته – ﷺ – شافية كافية: **قال: "مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى".**

ولأن النبي – ﷺ – يعلم ويربي ويزرع الصلاح في نفوس الصحابة حتى يتركهم ومن يأتي بعدهم على صراط مستقيم فقد جاءت إجابته – ﷺ– على الوجه الذي هو أهدى وأنفع وأتم ؛ فنبهت المسلمين على فضل طاعته – ﷺ – وأنها سبب في دخول الجنة، فسؤال الصحابة كان عن معرفة هذا الآبي

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ج ٢ ص ١١٣٤.
(٢) التنوير شرح الجامع الصغير ج٨ ص ٢١٠.
(٣) فيض القدير ج٥ ص ٣٧.

وكان مقتضى هذا السؤال أن تكون الإجابة : (من عصاني) لكن أين هذه الإجابة مما أجاب به النبي – ﷺ – ؟!

فالنبي – ﷺ – أجابهم بما هو أنفع وأهدى لهم، فيعرفوه ويركزوا عليه فيجعلوه كل قصدهم، ومنتهى همتهم، فجمع في إجابته بين الترغيب في طاعته "**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ**" والترهيب من عصيانه "**وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**" وهذا المسلك السديد في الرد هو ما يسميه البلاغيون :الأسلوب الحكيم . وقد جاءت إجابة النبي – ﷺ – في أسلوب شرطي أداته "من" وبدأ النبي بما هو أحب له : "**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ**"

ولما كانت طاعة الرسول – ﷺ – فريضة علي كل مسلم، ناسب ذلك أن يؤتي بأداة الشرط " مَن " والتي أعطت للأسلوب عمومية الخطاب، في كل مكان وفي أي زمان، وذلك بفضل دلالة هذه الأداة الثرة، وجاء فعل الشرط "أطاع " ماضيا لفظا لا معني شأن أفعال الشرط، رغبة من النبي – ﷺ – في تحقق طاعته من مجموع المخاطبين، فأخبر عن ذلك بصيغة الماضي الدالة علي تحقق الوقوع وثبوته وطاعة رسول الله – ﷺ – هي الانقياد لسنته، والعمل بهديها "وأن ما جاء به الرسول . – ﷺ – . يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول . ﷺ – . على حكم الشيء كنص الله – تعالى – لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله – ﷺ – "[1] فطاعة الرسول – ﷺ – مما هو معلوم من الدين بالضرورة، وجاء النص النبوي ليؤكد ويحث ويرغب في تلك الطاعة .

و جملة الشرط شوقت وألهبت لمعرفة الجزاء في جملة الجواب فإذا جاء قوله: (دخل الجنة) تمكن واستقر وآتت جملة الجواب أكلها فالمقصد منها هو الترغيب في وقوع الشرط، وقد جاء الفعل " دخل " ماضيا لفظا لا معني تأكيدا علي دخول الجنة لمن أتي بجملة الشرط (طاعة الرسول) ومفهوم

(١) تفسير السعدي ج١ ص ٨٥٠ مؤسسة الرسالة ط: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.

المخالفة في الشرط يقتضي أن من عصاه لن يدخل الجنة إلا أن مقتضى التأكيد على طاعة الرسول – ﷺ – وأن ذلك هو الطريق الوحيد لدخول الجنة أتبع أسلوب الشرط السابق أسلوبا آخر نص على عقوبة عصيانه فقال: **(ومن عصاني فقد أبى)**

وبين أسلوبي الشرط السابقين، مقابلة بديعة ساق المعنى إليها وتكمن بلاغتها في كونها أظهرت المعنى واضحا قويا، إذ وضع النبي – ﷺ – الحالين أمام المتلقي لتكون الصورة أمامه مكتملة واضحة،" فذكر الشئ، ومقابله، يوضح خصائص كل منهما، فتتحدد المعاني المرادة في الذهن تحديدًا قويًا"[١].

والحديث يؤكد على معنى مهم وهو مسؤلية العاصي التامة في عدم دخوله الجنة وحققت (قد) وأكدت هذه المسؤلية، فالمعنى كما يقول الطيبي: "ومن اتبع هواه، وزل عن الصواب، وضل عن الطريق المستقيم فقد دخل النار فوضع ((أبى)) موضعه وضعاً للسبب موضع المسبب ".[٢] ففي قوله (أبى) مجاز مرسل لعلاقة السببية حيث عبر بالسبب (الإباء) وأريد المسبب (دخول النار) .

وبذلك يكون النبي – ﷺ – قد بين وجوب طاعته ورغب فيها ورهب من عصيانه بلفظ سهل، ومعان واضحة، بعيدة عن التكلف والمبالغات يقول القاضي عياض: "وَأَمَّا فَصَاحَةُ اللِّسَانِ، وَبَلَاغَةُ الْقَوْلِ فَقَدْ كَانَ – ﷺ – مِنْ ذَلِكَ بِالْمَحَلِّ الْأَفْضَلِ، وَالْمَوْضِعِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، سَلَاسَةَ طَبْعٍ، وَبَرَاعَةَ مَنْزَعٍ، وَإِيجَازَ مَقْطَعٍ، وَنَصَاعَةَ لَفْظٍ، وَجَزَالَةَ قَوْلٍ، وَصِحَّةَ مَعَانٍ، وَقِلَّةَ تَكَلُّفٍ. أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَخُصَّ بِبَدَائِعِ الْحِكَمِ"[٣] وصل الله وسلم على معلم الناس الخير .

---

(١) ينظر : الصبغ البديعي. د / أحمد موسى. صـ٤٧١. دار الكتاب العربي. بيروت. طبعة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م.

(٢) شرح الطيبي ج٢ ص ٦٠٦.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى. القاضي عياض ج١ ص ١٦٧ دار الفيحاء – عمان/ ط الثانية – ١٤٠٧هـ.

المبحث الثالث

شرف تبليغ الحديث وحرمة الكذب على رسول الله ﷺ

تمهيد: حث النبي – ﷺ – على حفظ حديثه وفهمه وتبليغه؛ لأنه من الدين وبداية إقامة السنة بل قوام السنة على هذا التبليغ، فقال (نضر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمع .....) ووجه دلالة هذا الحديث على حُجِّيَّة السنة كما ذكر الشافعي: "أن رسول الله – ﷺ – ندب إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها ... فدل على أنه لا يأمر أن يؤدى عنه، إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه؛ لأنه إنما يؤدى عنه حلال يؤتى، وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة فى دين ودنيا"(١) .

ولأن السنة حجة على العباد كرم النبي – ﷺ – أصحاب الحديث فدعا لهم " نضر الله امرءا سمع مقالتي ....."(٢) وجعلهم الطائفة المنصورة، قال علي بن المديني في حديث النبي – ﷺ – :" لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم" هم أهل الحديث ."(٣) وقد جعلهم الله أركان الشريعة وهدم بهم كل بدعة شنيعة، فهم أمناء الله من خليقته والواسطة بين النبي – ﷺ – والمجتهدون في حفظ ملته، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة"(٤)

ويبين الدكتور عبد الغنى عبد الخالق وجه حُجِّيَّة السنة في أحاديث الأمر بتبليغ السنة وحرمة الكذب عليه فيقول : " أليس الأمر بالتحديث والتبليغ والحفظ، والإيعاد على الكذب عليه أشد الوعيد، والنهى عن عدم الأخذ بالسنة؛ دليلاً على أن السنة لها شأن خطير، وفائدة جليلة للسامع والمبلغ؟ فما هذه الفائدة وما هذا الشأن العظيم؟ أليس هو أنها حجة في الدين، وبيان للأحكام الشرعية، كما يدل عليه

---

(١) الرسالة. الإمام الشافعي ص ٤٠٢ ت. الشيخ /أحمد شاكر. مكتبة الحلبي ط الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م.

(٢) مسند أحمد ج ٢١ ص ٦٠.

(٣) سنن الترمذي ج٤ ص ٧٤.

(٤) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد د/ صهيب عبد الجبار ج١ ص ٣.

تعقيبه – ﷺ – الأمر بالتبليغ والتحديث– في الروايات السابقة– بقوله – ﷺ –: "فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه" " احفظوه وأخبروا من وراءكم" ..... ألا يشعرك هذا القول أن القصد من تبليغ السامع الحديث لمن بعده، أن يأخذ الغائب ما اشتمل عليه الحديث من فقه وحكم شرعي؟ وهل يكون ذلك إلا إذا كان الحديث حجة، ودليلاً تثبت به الأحكام التى تضمنها؟ وهل يصح أن يذهب من عنده ذرة من عقل وإيمان إلى أن أمره – ﷺ –، بالتحديث والتبليغ إنما كان لمجرد التسلية والمسامرة في المجالس كما يفعل بتواريخ الملوك والأمراء؟ كلا: فإن النبي – ﷺ – أجل وأعظم وأشد عصمة من أن يأمر أمته بما لا فائدة فيه، وبما هو مدعاة للهوهم وعبثهم "[١]

وإذا كان التبليغ والانشغال بعلم الحديث له كل هذا الفضل ودل على حُجِّيَّة وثبوت السنة فإن حرمة الكذب عليه – ﷺ – من أعظم الفرى؛ لأن الكذب يترتب عليه ضياع الدين وتحريم حلال أو تحليل حرام؛ ولهذا شدد النبي – ﷺ – في أمر الكذب عليه فقال: "فمَن كذب عليَّ مُتَعَمِّدًا، فليتبوأ مقعده من النار"[٢]

وما كان النبي – ﷺ – ليحوط السنة بهذا السياج المتين إلا لكونها حجة ثابتة يخشى عليها التبديل والتحريف، ولذلك استنفر النبي – ﷺ– همم أهل العلم لينصحوا لهذه السنة فقال – ﷺ – : "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"[٣] فتوعد النبي – ﷺ – من يكذب عليه متعمدًا أشد الوعيد يدل على حُجِّيَّة السنة التي تبقى نقية بهية وضاءة تتير دروب المؤمنين وتنشر المسك والطهر والحياء والصلاح والهدى في الخافقين .

وسوف أتناول في هذا المبحث حديثين :

الأول: في شرف تبليغ الحديث .

والثاني: في حرمة الكذب على رسول الله – ﷺ – .

---

(١) حُجِّيَّة السنة. الشيخ/ عبدالغني عبدالخالق ص ٤٢٤. الدار العالمية للكتاب الإسلامي ط١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦.

(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ٨٠.

(٣) مسند البزار ج١٦ ص ٢٤٧.ت. الشيخ /محفوظ الرحمن زين الله وآخرين مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة ط : الأولى ١٩٨٨م.

الحديث الأول

عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله – ﷺ – : " نضر الله امرءاً سمع مني شيئاً فبلغه كما سمع فرب مُبَلَّغٍ أوعى من سامع"[1] صدق رسول الله –ﷺ –

يدعو النبي – ﷺ – لمن يبلغ عنه حديثه بالنضرة، وهي الجمال والبهاء في الدنيا والآخرة، وهذا فيض وكرم من رسول الله – ﷺ – ، فليتحر المبلغ الدقة فيبلغ كما سمع، لأن المبَلَّغ قد يكون أكثر فهما وفقها من المبلِّغ فيستنبط المراد من كلام النبي – ﷺ – على قدر استطاعته فيكثر الخير وتعم الفائدة.

بدأ النبي – ﷺ – هذا التوجيه بهذه الجملة التي تحمل كل طاقات الجمال ولها أثرها الإيجابي على المتلقي : " **نضر الله امرءاً** "

والنُّونُ وَالضَّادُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى حُسْنٍ وَجَمَالٍ وَخُلُوصٍ و مِنْهُ النَّضْرَةُ: حُسْنُ اللَّوْنِ، وَنَضَرَ يَنْضُرُ. وَنَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ: حَسَّنَهُ وَنَوَّرَهُ، وَيُقَالُ هَذَا فِي كُلِّ مُشْرِقٍ حَسَنٍ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ.) القيامة ٢٢ وَالنَّضِيرُ: الذَّهَبُ، لِحُسْنِهِ وَخُلُوصِهِ و النضارة، في الأصل: حسن الوجه، والبريق، والنَّضْرة: النَّعْمة والعَيْش والغِنى، وَقِيلَ: الحُسْن والرَّوْنَق، وَقَدْ نَضَر الشجرُ والورقُ والوَجهُ وَاللَّوْنُ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَنْضُر نَضْراً ونَضْرة ونَضارة ونُضُوراً، ونَضِر ونَضُر، فَهُو ناضِر ونَضِير ونَضِرٌ أَي حَسَن [2] فالمعنى يدور حول الجمال والإشراق والنور، وجعل الوجوه الناظرة إلى ربها موصوفة بالنضارة يدل

---

(١) سنن الترمذي كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع ج ص والحديث في مسند أحمد ج ٢١ص ٦٠ و سنن ابن ماجة ج ١ ص ٨٤ وسنن الدرامي ج ١ ص ٣٠٣ و المستدرك ج ١ ص ١٦٢ وصحيح ابن حبان ج ١ص ٢٧١ والمعجم الكبير للطبراني ج ٢١ ص ٩١و المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم أبونعيم الأصفهاني ج١ ص ٤٠.واللفظ للترمذي.

(٢). النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٥ ص ٧١و لسان العرب (نضر) ومقاييس اللغة ج٥ ص ٤٣٩.

على أنه أعظم ما يوصف به جمال الوجه؛ لأن أرقى نعيم في الجنة هو رؤية الله –ﷻ – فدل هذا الدعاء النبوي على بلوغ المبلغ لسنته – ﷺ – أقصى أوصاف الجمال والبهاء، وقد يحمل قوله (امرءا) على المجاز المرسل لعلاقة الكلية حيث عبر بالكل وأريد الجزء وهو (الوجه) لأنه مظهر هذه النضرة ، ويعضد ذلك رواية الطبراني في المعجم الكبير (نضر الله وجه عبد)[1] وأرى أن الكلام على حقيقته وأن النضرة تتعدى المظهر إلى المخبر وأن نضرة المرء في الوجه والقلب والعقل "فهذه الدعوة النبويَّة متضمِّنة لجمال الظاهر والباطن، فإنَ النَّضرةَ هي البهجةُ والحُسْنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهرُ هذه البهجةُ والسرورُ والفرحةُ نضارةً على الوجه ولهذا يجمعُ سبحانه بين السُّرور والنَّضرة، كما في قوله تعالى: {فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان: ١١]؛ فالنَّضرةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم، فالنعيمُ وطِيبُ القلب يظهرُ نضارةً في الوجه، كما قال تعالى: {تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤] والمقصودُ أنَ هذه النَّضرةَ في وجه من سمع سُنَّة رسول الله–صلي الله عليه وسلم–، ووعاها، وحَفِظها، وبلَّغها، هي أثرُ تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه".[2]

وهذه الجملة خبرية لفظا إنشائية معنى قصد بها الدعاء وسر بلاغتها إظهار الدعوة في معرض الحاصل يقينا باستجابة الله–عزوجل– لهذه الدعوة، خاصة أن الداعي هو رسول الله – ﷺ – والمدعو له المبلِّغ عن رسول الله – ﷺ – و"خص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء؛ لأنه سعى في نضارة العلم وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهذا يدل على شرف

(١) المعجم الكبير. الطبراني ج ٢١ ص ٩١.

(٢) مفتاح دار السعادة ابن قيم الجوزية ج ١ص٧٢ دار عالم الفوائد، مكة المكرمة ط: الأولى، ١٤٣٢ هـ.

الحديث وفضله ودرجة طلابه، حيث خصهم النبي – ﷺ – بدعاء لم يشرك فيه أحدا من الأمة"[١]

ومجيء لفظ (امرءا) وفي رواية الحاكم (عبدا) يدل على أن التبليغ لسنة النبي – ﷺ – ليس خاصا بأحد عالم أو غير عالم، ولا ترتبط بمكان ولا زمان، فالتبليغ دعوة إلى الله – تعالى – والدعوة في عنق كل من يتبع رسول الله – ﷺ – : "قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ يوسف: ١٠٨

وكل على قدر طاقته وحاله فهذا الحديث وغيره يفتح آفاق الدعوة أمام كل من يتحمل حديثا أو آية في البيت، في الحقل، في الجامعة، في الفرح والحزن، في كل مناحي الحياة، المهم أن يكون لديك هم وقصد لتبليغ الدعوة والعمل من أجلها، يقول ابن المنير (ت٦٨٣هـ) رحمه الله: "من الحقوق الواجبة –أي للسنة – نشرها على الناس قاطبة يحملها الآخذ إلى الغالب، ويبلغها الشاهد إلى الغائب ..... فوظيفة الحامل الجاهل في هذه الأمانة أن يؤديها إلى أهلها بالوفاء والتسليم ووظيفة الحامل الحاذق أيضاً أن يؤديها إلى من عساه أحذق منه في الفهم والتفهيم وليحذر أَن يحجب عَن الْمَزِيد باعتقاد أَنه ذَلِك الْعَظِيم. ففوق كل ذِي علم عليم"[٢]

والخطاب النبوي موجه إلى المرء والمرأة ، وإن جاء بلفظ الذكور وهذا من سنن العرب في كلامهم فهو من باب تغليب الرجال على النساء والتغليب في الخطاب النبوي وكذلك القرآني له أسراره ودلائله بما يدل على عبقرية هذه اللغة التي اختارها الله –ﷻ– وعاء لكتابه وكذلك يدل على أن البيان النبوي

(١) مرعاة المفاتيح ح١ ص ٣٢٨.

(٢) المتواري علي تراجم أبواب البخاري ابن المنير الإسكندراني ص ٣٤ ت.أ/ صلاح الدين مقبول أحمد مكتبة المعلا – الكويت. بدون.

إنما هو من مشكاة الوحي وعلى أن النبي – ﷺ – أحاط بهذه اللغة القادرة خبرا، ويبين سيبويه سر تغليب الرجال على النساء فيقول:

" واعلم أن المذكَّر أخفّ عليهم من المؤنّث لأنّ المذكر أوّل، وهو أشدُّ تمكنا، وإنّما يخرج التأنيثُ من التذكير. ألا ترى أنّ " الشيء " يقع على كلّ ما أخبر عنه من قبل أن يُعْلَم أذكرٌ هو أو أُنثى، والشيء ذكر"(١) وذكر الرازي سبب التغليب في أن الذكورة أصل، والتأنيث فرع في اللفظ وفي المعنى، أما في اللفظ فلأنك تقول: قائم. ثم تريد التأنيث فتقول: قائمة. فاللفظ الدال على المذكر هو الأصل، والدال على المؤنث فرع عليه. وأما في المعنى فلأن الكمال للذكور، والنقصان للإناث، فلهذا السبب متى اجتمع التذكير والتأنيث، كان جانب التذكير مغلبا(٢)

فتغليب الرجال على النساء راجع إلى خفة المذكر وأنه الأصل لفظا ومعنى بل هو الأصل في الخلقة قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ النساء: ١

فلذلك غلب الرجل على المرأة في الخطاب وبناء على ذلك فإن المرأة لها دورها في التبليغ عن رسول الله – ﷺ – بل قد يكون المجتمع في حاجة إلى بلاغ النساء، وقد قامت أمهات المؤمنين وكثير من الصحابيات–رضى الله عنهن – أجمعين بهذا البلاغ وحفظن على المسلمين كثيرا من أمور دينهم .

وهذه الجملة (نضر الله امرءا) تحمل تشويقا وإلهابا فلتذهب نفس المتلقي كل مذهب في معرفة من صاحب هذا الفضل العظيم ولتردد بين جنباتها ياليتني أكون هذا المرء فإذا جاءت جملة الصفة **(سمع مني شيئا)** جاءت

(١) الكتاب.سيبويه. ج١ص ٢٢.ت.أ/ عبد السلام محمد هارونا. مكتبة الخانجي، القاهرة ط الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

(٢) مفاتيح الغيب. الرازي. ج٦ ص ٤٨١ دار إحياء التراث العربي – بيروت ط: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

والنفس إليها راغبة متطلعة فتقع في مستقر القلب والعقل فتمتثل وتذعن لأمر النبي – ﷺ – والمراد بالسمع هو العلم الذي يشمل القول والفعل والشمائل أيضاً، وإنما خص السمع بالذكر؛ لأن مدار العلم عليه غالباً[١] و(شيئا) كلمة عامة تشمل كل مايمكن أن يبلغ عن رسول الله – ﷺ – لأن (الشيء) كما يقول سيبويه : " يقع على كلّ ما أخبر عنه"[٢] فهو (اسم لأيّ موجود ثابت متحقّق يصحّ أن يُتصوَّر ويُخبر عنه سواء أكان حسِّيًّا أم معنويًّا)[٣] ولذلك فهي أعم من رواية أحمد (سمع مقالتي) ورواية الحاكم (سمع منا حديثا) لأن اللفظين : (مقالتي) و(حديثا) يدلان على السنة في صورتها القولية بخلاف (شيئا) قال الطيبي: قوله: "شيئا" يعم الأقوال والأفعال الصادرة من النبي– ﷺ – وأصحابه"[٤]

وألمح في كلمة (مني) بلاغة عالية فهي تشي بأن الألفاظ التي يحدث بها المحدث كأنها خرجت من صوت النبي – ﷺ – وهذا المعنى أدعى إلى الإذعان و قوة الأخذ وتمام المحافظة وكمال الرواية لفظا ومعنى، ولم لا ؟! والصوت المسموع كأنه صوت النبي – ﷺ – .

وهذه الجملة (سمع مني شيئا) أولى مراتب التبليغ فهذا الدعاء (نضر الله امرءا) إنما هو لمن سمع وحفظ ووعى وبلغ كما جاء في رواية الحاكم بزيادة (فحفظها ووعاها وأداها) فبركة العلم وثمرته في تبليغه وبثه في الأمة فلا فائدة لتحمل العلم إلا ببثه في المجتمع ودعوة الناس إليه .

وثمرة السماع هو التبليغ ولذلك كان العطف بفاء التعقيب في قوله: **(فبلغه كما سمع)**

---

(١) مرعاة المفاتيح ج ١ ص ٣٢٨.

(٢) الكتاب ج١ ص٢٢.

(٣) معجم اللغة العربية المعاصرة. د/ أحمد مختار عمر ج٢ ص ١٢٥٢عالم الكتب ط الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

(٤) مرعاة المفاتيح ج١ ص ٣٢٨.

والفاء عاطفة على محذوف دلت عليه رواية الحاكم (فحفظها ووعاها) والحذف يدل على أن الغاية والقصد إنما هو التبليغ ولذلك سارع إلى ذكره وأما رواية الحاكم فأراها ناظرة إلى ما يجب أن يكون عليه السامع من إتقان التلقي فيحفظ بالقلب أو بالكتابة ويعي فلاينسى، فلا بلاغ إلا بحسن التلقي سمعا وحفظا ووعيا.

وقول النبي – ﷺ – :(فبلغه) فيه تفخيم وتعظيم لشأن المبلِّغ إذ المادة تدل على وصول الغاية **في أداء المبلّغ** فمادة الفعل تدل على الْوُصُولُ إِلَى الشَّيْءِ. تَقُولُ بَلَغْتُ الْمَكَانَ إذا وصلت إليه وَكَذَلِكَ الْبَلَاغَةُ الَّتِي يُمْدَحُ بِهَا الْفَصِيحُ اللِّسَانِ، لِأَنَّهُ يَبْلُغُ بِهَا مَا يُرِيدُهُ، وَلِي فِي هَذَا بَلَاغٌ أَيْ كِفَايَةٌ.(١) ولذلك خوطب النبي – ﷺ – بمادة الأمر من البلاغ قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ المائدة: ٦٧ وقوله (كما سمعه) يدل على الدقة في النقل فلا يزيد ولا ينقص كما جاء مفسرا في رواية **(نضر الله من سمع قولي ولم يزد فيه)**(٢) وفي ذلك رد مكين على منكري السنة الذين ادعوا أن السنة رويت بالمعنى لا باللفظ يقول الدكتور المطعني عليه رحمة الله :" وإبدال لفظ مكان لفظ – مع التعمد – يندرج تحت الكذب على رسول الله. وهذا الحديث (يقصد حديث من كذب على متعمدا) بلغ مبلغ التواتر الذي لا مثيل له، وقد أشتهر بذلك عند المحدثين فمن يا ترى – من أصحاب رسول الله، وهم الذين رَوَوْا لنا كل أحاديثه القوليه، وكل سنته العملية، من منهم يجرؤ على الكذب على رسول الله؟ وقال – ﷺ – حاثا ومرغباً في الأمانة في النقل عنه: "نضَّر الله امرءاً سمع مني شيئاً فبلغه كما سمع فرب مُبَلَّغٍ أوعى من سامع" فانظر إلى قوله "فبلغه كما سمع" إنه دعوة إلى نقل الحديث عنه بألفاظه ومعانيه، لا بمعانيه فحسب

(١) مقاييس اللغة ج١ ص ٣٠١.
(٢) المسند المستخرج على صحيح الإمام مسلم أبونعيم الأصفهاني ج١ ص ٤٠

كما يدعي هؤلاء المرجفون الأفاكون"(١). فالدعاء بالنضرة ليس لمن بلغ بل لمن بلغ محافظا على المسموع فقول النبي – ﷺ – (فبلغه كما سمع) قيد في دخول المبلِّغ في كنف النضرة والنعيم .

ثم يسوق النبي – ﷺ – العلة لحثه على التبليغ فقال : "فرب مْبَلَّغٍ أوعى من سامع"

والفاء سببية والجملة بعدها توضح سبب الأمر بتبليغ المسموع لفظا ومعنى، واختلف النحويون، في معنى رب، على أقوال: الأول: أنها للتقليل. وهو مذهب أكثر النحويين، والثاني: أنها للتكثير. والثالث: أنها تكون للتقليل والتكثير فهي من الأضداد(٢) وأرى أن "رب" للتقليل ولا معنى لقول بعضهم أنها وضعت للتقليل واستعيرت في الحديث للتكثير.(٣)؛ لأنها بدلالة التقليل تدل على أن الذين يستفيدون من حديث النبي – ﷺ – ويستنبطون منه الأحكام قلة بالنسبة لعامة السامعين المبلغين .

و(أوعى) أفعل تفضيل دل على أن السامع له من الوعي ما يستطيع به البلاغ إلا أن المبلغ قد يكون أكثر وعيا وفهما واستنباطا من السامع أولا والمبلغ ثانيا، فجملة (فرب مبلغ أوعى من سامع) . "تَنْبِيه على فَائِدَة التَّبْلِيغ وأن الْمبلَّغ قد يكون أفهم من الْمبلِّغ فَيحصل لَهُ فِي تِلْكَ الْمقَالة مَا لم يحصل للمبلِّغ اَوْ يكون الْمَعْنى ان الْمبلَّغ قد يكون افقه من الْمبلِّغ فَإِذا سمع تِلْكَ الْمقَالة حملهَا على أحسن وجوهها واستنبط فقهها وَعلم المُرَاد مِنْهَا"(٤)

فاللهم اجعلنا ممن يبلغون هدي رسول الله – ﷺ – واستخدمنا يا رب ولا تستبدلنا وصلى الله وسلم على معلم الناس الخير .

---

(١) الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية عرض وتفنيد ونقض د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ص ٥٣ مكتبة وهبة ط الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني ص ٤٤٠.

(٣) ينظر : شرح الطيبي ج ٢ ص ٦٨٣.

(٤) مفتاح دار السعادة. ابن القيم ج١ ص ٧٢.

الحديث الثاني

عَنِ المُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ - ﷺ - يَقُولُ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[(١)]

صدق رسول الله ﷺ

الكذب من المحرمات التي حذر منها الإسلام لكن الكذب على رسول الله - ﷺ - ليس مثل الكذب على غيره؛ فالكذب عليه - ﷺ - أعظم جرما وأشد خطرا إذ يترتب على هذا الكذب تبديل أحكام وأمور شرعية؛ لذلك كان هذا التحذير النبوي الذي توعد فيه النبي - ﷺ - هذا الكذاب بالمكث في النار، وهذا يدل على ثبوت حُجِّيَّة السنة؛ إذ المحافظة عليها والأمانة في نقلها واجب شرعي.

يقول الدكتور عبدالغني عبدالخالق مبينا وجه دلالة حديث الكذب عليه على ثبوت حُجِّيَّة السنة: " لا شك فى أنه - ﷺ - إنما نص على خصوص الكذب عليه، وخصه بهذا الوعيد الشديد مع دخوله فى عموم الكذب المعلوم حرمته للجميع؛ لأن الكذب عليه - ﷺ - مستلزم لتبديل الأحكام الشرعية، واعتقاد الحلال حراماً، والحرام حلالاً .وهذا الاستلزام لم يتفرع إلا عن حُجِّيَّة السنة، وأنها تدل على الأحكام الشرعية، وأخبرنى بربك : إذا لم يكن الحديث عن رسول الله - ﷺ - حجة، فعلام هذا التحذير من الأحاديث المكذوبة عنه؟ ولم يحصل بها الضلال والفتنة؟ ولو كان المقصود من التحديث بأحاديث رسول الله - ﷺ - مجرد التسلية واللهو كرواية الأشعار وأخبار العرب وغيرهم أفلا يستوى الصادق منها والكاذب فى هذا المعنى؟"[(٢)]

---

(١) صحيح البخاري ك بدء الوحي باب باب قَوْلِ النَّبِيِّ - ﷺ - يُعَذَّبُ الْمَيِّتُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ النَّوْحُ مِنْ سُنَّتِهِ. ج ٢ ص ٨٠ وصحيح مسلم بَابُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْكَذِبِ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ج ١ ص ١٠ واللفظ لمسلم. والحديث في مسند أحمد وعند أصحاب السنن.

(٢) حُجِّيَّة السنة ص ٤٢٦.

وقد بدأ النبي – ﷺ – هذا الترهيب النبوي بهذه الجملة الحاكمة المؤكدة: " **إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ**"

ينفي النبي – ﷺ – أن يكون الكذب عليه مثل الكذب على غيره وقد أكد هذا النفي بـ"إن" والتأكيد راجع لتثبيت هذا المعنى وإقراره في النفس، خاصة أن الكذب على عمومه محرم تحريما شديدا إلا أن النبي – ﷺ – أراد أن يؤكد على أن الكذب عليه – ﷺ – كبيرة كبرى، وأرى أن الفرق بين الكذب على رسول الله – ﷺ – والكذب على الناس كالفرق بين الرسول – ﷺ – والناس ، يقول الكرماني : "فَإِن قلت: الْكَذِب على غَيره أَيْضا مَعْصِيّة: {وَمن يعْص الله وَرَسُوله ويتعد حُدُوده يدْخلهُ نَارا خَالِدا فِيهَا} (النِّسَاء: ٤١) . قلت الْكَذِب عَلَيْهِ كَبِيرَة لِأَنَّهَا على الصَّحِيح مَا توعد الشَّارِع عَلَيْهِ بِخُصُوصِهِ، وَهَذَا كَذَلِك، بِخِلَاف الْكَذِب على غَيره فَإِنَّهُ صَغِيرَة، "[1]

وجاء المسند إليه (كذبا) نكرة لإفادة العموم والشمول فأي كذب على رسول الله – ﷺ – قل أو كثر ترغيبا أو ترهيبا في الأحكام أو في فضائل الأعمال داخل في هذا الوعيد وجاء النفي ب(ليس) التي تدل على عدم اتصاف اسمها بالخبر، لتبين أن الضمير المستتر (هو) العائد على الكذب على رسول الله – ﷺ – مغاير للكذب على آحاد الناس، فالكذب على رسول الله لعب في دين الله وتضييع لأحكامه وشرائعه فالكذب عليه – ﷺ – محرم و فاحشة عظيمة وموبقة كبيرة؛ ولذلك شدد النبي – ﷺ – في الوعيد فأتبع هذا التأسيس هذا الوعيد: **(فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)**

والفاء سببية دلت على أن ما بعدها مسبب عما قبلها، ومترتب عليه، أي أن أسلوب الشرط جاء نتيجة للجملة الأولى ، فلما بين النبي – ﷺ – أن

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري. الكرماني ج٧ ص ٨٦ دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان ط. أولى: ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م.

الكذب عليه ليس مثل الكذب على غيره ، أتبعه بما يوضح هذه المفارقة ويؤكد عليها .

وقد جاء هذا الوعيد في أسلوب شرطي أداته "من" التي تجعل الخطاب عاما شاملا لكل المسلمين لأن الأمر يتعلق بحكم شرعي، والأحكام الشرعية يخضع لها كل أفراد المسلمين مهما كان شأنهم ووضعهم .

وجملة الشرط (كذب علي متعمدا) صيغت صياغة دقيقة كل كلمة فيها لها دورها الدلالي فـ(كذب) فعل ماض لفظا لا معني وجاء على هذا النحو تأكيدا على أن جواب الشرط منوط بمن تحقق كذبه . و(الكذب): نقيضُ الصِّدْقِ وهُو – أيضا– الْإِخْبَارُ عَنْ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ سَوَاءٌ فِيهِ الْعَمْدُ وَالْخَطَأُ وَلَا وَاسِطَةَ بَيْنَ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْإِثْمُ يَتْبَعُ الْعَمْدَ[1]

وقد يظن أحدهم أن (علي) قيد يدل على أن الكذب له – ﷺ – لا يدخل في هذا الوعيد كما زعم بعض الجهال وعند التحقيق (لَا فرق فِي تَحْرِيم الْكَذِب على النَّبِي عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام، بَين مَا كَانَ فِي الْأَحْكَام وَغَيره: كالترغيب والترهيب. فكله حرَام من أكبر الْكَبَائِر بِإِجْمَاع الْمُسلمين المعتد بهم، خلافًا للكرامية فِي زعمهم الْبَاطِل أَنه يجوز الْوَضع فِي التَّرْغِيب والترهيب، وتابعهم كثير من الجهلة الَّذين ينسبون أنفسهم إِلَى الزّهْد. وَمِنْهُم من زعم أَنه جَاءَ فِي رِوَايَة: من كذب عَليّ مُتَعَمدا ليضل بِهِ، وتمسكوا بِهَذِهِ الزِّيَادَة: أَنه كذب لَهُ لَا عَلَيْهِ، وَهَذَا فَاسد ومخالف لإِجْمَاع أهل الْحل وَالْعقد، وَجَهل بلِسَان الْعَرَب، وخطاب الشَّرْع. فَإِن كل ذَلِك كذب عِنْدهم.)[2]

وإذا كانت (علي) ليست قيدا وأن الكذب "له" لا يجوز فما فائدة مجيئها في جملة الشرط ؟ ولا نسلم بما قاله المباركفوري حيث قال :" ولا مفهوم لقوله

(١) ينظر : لسان العرب (كذب) والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير. أبو العباس الفيومي. ج ٢ ص ٥٢٨.المكتبة العلمية. بيروت.

(٢) عمدة القاري ج ٢ ص ١٤٩.

"علي"؛ لأنه لا يتصور أن يكذب له؛ لأنه – عليه السلام – نهى عن مطلق الكذب فلا حجة فيه لمن جوز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب."[١]

فالمباركفوري في سبيل رد من قال بجواز الكذب (له) – ﷺ – بدلالة (علي) ذكر – رحمه الله – أن (علي) لا مفهوم لها وهذا لا يقبل في كلام بليغ بله كلام النبوة؛ لأن النظم العالي يقتضي وجود دلالة لكل لفظة في التركيب وكلما زدت شيئا زاد المعنى؛ و (علي) جزء أساسي في التركيب ولك أن تقارن بين مجيء جملة الشرط بدون "علي" (من كذب متعمدا) تجد المعنى قد تغير وابتعد عن مراد النبي – ﷺ – إذ صار الأمر عاما في كل كذب متعمد وهذا غير وارد ؛ فلذلك جاءت "علي" لتحدد نوع الكذب المتوعد عليه بالتبوء في النار وهو أن يكون هذا الكذب على رسول الله – ﷺ – خاصة، ولا يقبل أن نعتقد رضا النبي – ﷺ – بالكذب له فتوضع أحاديث لم يقلها، لأن ذلك فيه افتراء على رسول الله – ﷺ – واتهام له بالتقصير فلا يقبل أبدا كذب عليه ولا كذب له، وقوله (متعمدا) حال وهو قيد في جملة الشرط والتعمد هو توافر القصد والسر في مجيئه أن الكذب "قد يكون عمدا وقد يكون سهوا مع أن الإجماع والنصوص المشهورة في الكتاب والسنة متوافقة متظاهرة على أنه لا إثم على الناسى والغالط فلو أطلق عليه السلام الكذب لتوهم أنه يأثم الناسي أيضا فقيده وأما الروايات المطلقة فمحمولة على المقيدة بالعمد"[٢] وذلك كما في رواية أحمد " مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيَّ مَا لَمْ أَقُلْ....."[٣] فهي مطلقة في كل قول عمدا أو سهوا ولذلك فالرواية تحمل على الرواية المقيدة .

وقد زعم محمود أبورية بأن لفظ (متعمدا) مختلق فقال:" وكل ذي لب يستبعد أن يكون النبي قد نطق بها – يقصد (متعمدا) لمنافاة ذلك للعقل والخلق اللذين كان الرسول متصفا بالكمال فيهما، ذلك بأن الكذب هو الإخبار بالشيء على

(١) مرعاة المفاتيح ج ١ص ٣٠٢.
(٢) شرح النووي ج ١ ص ٦٩.
(٣) مسند أحمد ج ١٦ ص ٣٠٥.

خلاف ما هو عليه سواء أكان عمدا أم خطأ ولعل هذه اللفظة قد تسللت إلى هذا الحديث من طريق الإدراج المعروف عند العلماء ليسوغوا بها، وضع الحديث على رسول الله – ﷺ – حسبة من غير عمد، كما كان يفعل الصالحون من المؤمنين ويقولون "نحن نكذب له لا عليه" أو يتكئ عليها الرواة فيما يروونه عن غيرهم على سبيل الخطأ، أو الوهم أو سوء الفهم لكي لا يكون عليهم حرج في ذلك؛ لأن المخطيء غير آثم "[1] فهو يزعم أن لفظ (متعمدا) من عمل الرواة ليستطيعوا الوضع حسبة وهذا الكلام هو الذي يناقض العقل؛ لأن قصد الوضع لا يكون من قبيل الخطأ والنسيان " فكيف يجامع قصد الوضع عدم التعمد؟! وتفسير الحسبة بأنها عن غير عمد غير مقبول ولا مسلم، ثم إن رفع إثم الخطأ أو السهو ليس بهذه الكلمة، وإنما ثبت بأدلة أخرى، وقد تقرر فى الشريعة أنه لا إثم على المخطئ والناسى، ما لم يكن بتقصير منه فذكر الكلمة لا يفيد هؤلاء الرواة شيئاً ما دام هذا أمراً مقرراً، والسر فى ذكرها أن الحديث لما رتب وعيداً شديداً على الكاذب، والمخطئ، والساهى والناسى لا إثم عليهم، كان من الدقة والحيطة فى التعبير التقييد بالعمد، وذلك لرفع توهم الإثم على المخطئ والغالط والناسى [2] كما أن هذه الكلمة (متعمدا) كلمة حاكمة ومؤسسة ليس في هذا الحديث فقط بل هي مدار كل أحكام الشريعة، وهذه الكلمة ثابتة عند البخاري ومسلم وأصحاب السنن.

فجملة الشرط قد حددت من يستحق جواب الشرط وهو الكاذب على رسول الله – ﷺ – متعمدا، وجملة الشرط (كذب علي متعمدا) ألهبت النفس لمعرفة عقوبة من يتجرأ على دين الله بالكذب على رسول الله – ﷺ – وهو ما جاء في جملة الجواب : **(فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)**

(١) أضواء على السنة المحمدية د محمود أبورية ص ٣٥.دار المعارف.ط السادسة.

(٢) ينظر : دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين د/ محمد محمد أبو شُهبة ص ٥٣ مكتبة السنة ط الأولى، ١٩٨٩ م.

ولأن الجزاء من جنس العمل فإن الكاذب على رسول الله – ﷺ – أراد أن يتبوأ بهذا الكذب مكانة ووجاهة في الدنيا فكان مصيره في الآخرة أن يتبوأ مقعدا في جهنم .

ومعنى قوله (فليتبوأ) فليتخذ لنفسه منزلاً في النار، يقال: تبوأ الدار إذا اتخذها مسكناً.(١). وفرق بين أن يكون داخلا في النار مع الداخلين وأن يكون صاحب منزل ومستقر بها وهذا المعني يدل على طول مكثه فيها،" بل ظاهره أنه لا يخرج منها؛ لأنه لم يجعل له منزلا غيره، إلا أن الأدلة القطعية قامت على أن خلود التأبيد مختص بالكافرين "(٢)

ورجح ابن حجر أن الأمر هنا بمعنى الخبر ومعناه استوجب ذلك فليوطن نفسه عليه والمراد أن هذا جزاؤه (٣) ويعضد ذلك رواية " بنى له بيتٌ فى النار "(٤) وقيل : الأمر فيه تهكم وتغليظ؛ إذ لو قيل: كان مقعده في النار، لم يكن كذلك: وأيضاً فيه إشارة إلى معنى القصد في الذنب وجزائه، أي كما أنه قصد في الكذب التعمد فليقصد في جزائه التبوء(٥)

ولما كان الجزاء شديدا والوعيد مزلزلا تحرج الصحابة من الإكثار في الرواية، فعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ لِلزُّبَيْرِ: إِنِّي لاَ أَسْمَعُكَ تُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – كَمَا يُحَدِّثُ فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ؟ قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أُفَارِقْهُ، وَلَكِنْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٦) فالزبير –

(١) ينظر : لسان العرب (بوأ)
(٢) مرعاة المفاتيح ج ١ ص ٣٠٢.
(٣) فتح الباري ج١ ص ٢٠١.
(٤) طرق حديث من كذب علي متعمدا. أبو القاسم الطبراني.ت. أ/ علي حسن علي عبد الحميد و آخرين. المكتب الإسلامي، دار عمار – عمان – الأردن ط. الأولى، ١٤١٠هـ.
(٥) الطيبي ج٢ ص ٦٥٩.
(٦) صحيح البخاري ج١ ص ٣٣.

رضي الله عنه – يبين سبب قلة الرواية عن رسول الله – ﷺ – وهو خوف الوقوع في الكذب عليه ، يقول ابن حجر في الفتح : " وفي تمسك الزبير بهذا الحديث على ما ذهب إليه من اختيار قلة التحديث ، دليل للأصح في أن الكذب هو الإخبار بالشيء على خلاف ما هو عليه سواء كان عمدا أم خطأ، والمخطئ وإن كان غير مأثوم بالإجماع، لكن الزبير خشي من الإكثار أن يقع في الخطأ وهو لا يشعر؛ لأنه وإن لم ياثم بالخطأ لكن قد يأثم بالإكثار؛ إذ الإكثار مظنة الخطأ ، والثقة إذا حدث بالخطأ فحمل عنه وهو لا يشعر أنه خطأ يعمل به على الدوام للوثوق بنقله، فيكون سببا للعمل بما لم يقله الشارع، فمن خشي من الإكثار الوقوع في الخطأ لا يؤمن عليه الإثم إذا تعمد الإكثار فمن ثم توقف الزبير وغيره من الصحابة عن الإكثار من التحديث وأما من أكثر منهم فمحمول على أنهم كانوا واثقين من أنفسهم بالتثبت أو طالت أعمارهم فاحتيج إلى ما عندهم فسئلوا فلم يمكنهم الكتمان رضي الله عنهم "[1]

فالصحابة يخشون التحديث عن رسول الله – ﷺ – وهم صادقون خشية الإكثار الذي هو مظنة الخطأ، فما بالنا بمن يكذب على رسول الله – ﷺ – ؟!

وإذا كان التبوأ في جهنم عقوبة لمن كذب متعمدا على رسول الله – ﷺ – فما هي عقوبة من كذب سنة رسول الله – ﷺ – وقلل منها وطعن فيها وأسقطها ؟

رزقني الله وإياكم حب سيدنا ومولانا رسول الله – ﷺ – وحفظ الله على الأمة دينها ورد الله عن سنة المصطفى – ﷺ – كل كيد اللهم آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) فتح الباري ج١ ص ٢٠٢.

الخاتمـــــة

الحمد لله حمدا يبلغ رضاه وأشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسوله ومجتباه، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين وعلى من سار على سنته وهديه إلى يوم الدين . وبعـــد:

فأحاديث حُجِّيَّة السنة دليل من دلائل نبوته – ﷺ –؛ لأن النبي – ﷺ – أخبر عن أمر غيبي وعالجه كأنه يحياه ويعايشه، فبدت هذه الأحاديث وكأنها قيلت للأمة اليوم تحذر وتهذب وتنفي الخبث عن الأمة، ونوجز أهم النتائج التي خلص البحث إليها فيما يلي:

١– اتخذت أحاديث إثبات حُجِّيَّة السنة ثلاثة محاور أساسية هي :

- بيان أن السنة وحي من الله .
- الأمر بالتمسك بالسنة ووجوب طاعته – ﷺ – .
- شرف تبليغ الحديث، وحرمة الكذب عليه – ﷺ – .

٢– حديث (الأريكة) (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه) أراه الأم لكل أحاديث حُجِّيَّة السنة، وكافة معاني هذه الأحاديث ترد إليه، ففيه بيان بأن السنة وحي من الله وأن الرسول له حق التشريع ؛ ولذلك يجب التمسك بما جاء عنه وطاعته – ﷺ – في كل أمروأن طاعته من طاعة الله عزوجل، وطالما أن الأمر كذلك فشرف لمن يبلغ عن رسول الله – ﷺ –، ولأن السنة وحي والرسول مشرع فالكذب عليه من أعظم الكبائر إذ فيه تبديل لأحكام الدين، وإدخال في الدين ما ليس منه .

٣ـ جاءت الألفاظ مؤثرة وقوية فوضحت المعنى، ونقلته إلى أذهان المخاطبين فى صورة تتفق والغرض الذى سيق الكلام من أجله، وكانت الأفعال والأسماء مادة وصياغة فى غاية الدقة و جمالية التعبير، وتمام الملاءمة للمقام والسياق ، خاصة أن هذه الأحاديث تعالج قضية من أخطر القضايا التي تواجه الأمة الإسلامية، فالألفاظ يجب أن تكون مختارة بعناية تامة حتى تؤدي دورها وتقطع ألسنة المتخرصين ٠

٤- غلب الأسلوب الخبري على كافة أحاديث حُجِّيَّة السنة، وذلك راجع إلى المعاني المراد إقرارها وتوضيحها والتي يناسبها الأسلوب الخبري، فلم تحفل هذه الأحاديث بالأساليب الإنشائية ولم يرد منها إلا النداء .

٥ـ برز الإيجاز بنوعيه في هذه الأحاديث، تركيزا وتكثيفا للمعانى ومراعاة لأحوال المخاطبين، فجمع النبي - ﷺ - في بيانه بين القصد في اللفظ، والوفاء بحق المعاني ٠

٦ـ كان التأكيد سمة ظاهرة من سمات هذه الأحاديث واتخذ صورا مختلفة فتارة يكون ب(ألا) التنبيهية أو من خلال أسلوب القصر أو بـ " إن " والجملة الاسمية أو بالقسم ؛ وذلك مراعاة لأحوال المخاطبين و لفتا لأهمية المعاني المراد إقرارها في نفوس المخاطبين حفاظا على دين الأمة .

٧ـ كثرمجيء أسلوب الشرط فى هذا البيان النبوى ترغيبا وترهيبا وذلك لما فيه من تشويق وإثارة لعقل المتلقى وهذا أدعى للإذعان والاستجابة٠

٨ـ جاءت بعض الأوامر والنواهى، فى هذا الأدب معللة بالفاء وإن (فإن) إظهارا للعلة فى أوكد صورة وأقواها طلبا للإقناع التام المسلم إلى الإذعان والانقياد٠

٩ـ لم تحفل أحاديث حُجِّيَّة السنة بالصور البيانية المركبة التى تحلق فى سماء الخيال، وذلك راجع إلى طبيعة معاني هذا الموضوع، الذى يحتاج إلى الحقائق المجردة والمعاني المباشرة والبراهين العقلية .

١٠ـ ندر فى هذه الأحاديث المحسنات البديعية، وما جاء منها وهو قليل جاء سمحا عفوا يتطلبه المعنى ويستدعيه المقام.

وبعد:

فالبيان النبوي وبلاغته العالية التي لا يقترب من رياضها بلاغة بشري، لهي خير دليل على حُجِّيَّة السنة، وأنها من مشكاة الوحي؛ لأنها بلاغة لا يدرك شأوها إلا نبي أدبه ربه فأحسن تأديبه ولا ينكر ضوء الشمس إلامن به

رمد، فالسنة السنة نتمسك بها ونقوم بها ونعمل بما فيها ونربي أبناءنا على حبها، حتى نلقى رسول الله – ﷺ – غير مبدلين ولا محرفين .

ويعلم الله أني اجتهدت قدر طاقتي، وما كان هذا البحث إلا حبا في رسول الله – ﷺ – وغيرة على سنته، لعلي أكون أهلا لشفاعته ، والله أسأل القبول والعفو عن الزلل والتجاوز عن التقصير فهو ـ سبحانه ـ حسبى ونعم الوكيل ٠

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

رضا السعيد فايد

غرة ربيع الأول للعام الهجري ١٤٤١ هـ

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن . السيوطي . ت. أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .

٢ – الإتيان والمجيء : فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم د/ محمود موسى حمدان مكتبة وهبة ط أولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

٣ – الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان ط الرسالة . بدون .

٤ – أدوات التشبيه : دلالاتها واستعمالها في القرآن الكريم . د/ محمود موسى حمدان . مطبعة الأمانة ط أولى ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م .

٥ – إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري . القسطلاني . المطبعة الكبرى الأميرية، مصر . ط السابعة، ١٣٢٣ هـ .

٦ – إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول . الشوكاني . ت. الشيخ /أحمد عزو . دار الكتاب العربي . دمشق . ط أولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

٧ – أساليب بلاغية . د/ أحمد مطلوب وكالة المطبوعات – الكويت . ط ١٩٨٠

٨ – أسرار البلاغة الإمام عبدالقاهر الجرجاني . ت . الشيخ/ محمود شاكر ٠ مكتبة الخانجى ط أولى ١٩٩١م .

٩ – الأصول في النحو لابن السراج البغدادي ت . د/ عبد الحسين الفتلي . مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٨م

١٠ – أضواء على السنة المحمدية د محمود أبورية .دار المعارف .ط السادسة . بدون .

١١ – أمالي ابن الحاجب . ت. د/ فخر قباوة . دار الجيل بيروت ط أولى ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م

١٢ – أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك .ابن هشام المصري . ت. أ / يوسف الشيخ محمد البقاعي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .بدون .

١٣ – الإيضاح، الخطيب القزويني، مكتبة الآداب القاهرة . ط . ١٤١٢هـ–١٩٩١م.
١٤ – البحر المحيط . أبو حيان الأندلسي . ت . أ/ صدقي محمد جميل . دار الفكر – بيروت ١٩٩٤م
١٥ – البحر المحيط في أصول الفقه . الزركشي . دار الكتبي . الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ –
١٦ – بذل المجهود في حل سنن أبي داود. الشيخ خليل السهانفوري . نشر مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للتراث . الهند ط أولى ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م
١٧ – البيان النبوي د / محمد رجب البيومي . دار الوفاء . ط أولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
١٨ – التحذير من تعظيم الآثار غير المشروعة د / عبد المحسن بن حمد العباد البدر. الدار الحديثة مصر ط. الأولى ١٤٢٥هـ –٢٠٠٤م .
١٩ – التحرير والتنوير . الطاهر ابن عاشور . الدار التونسية ط ١٩٨٤ م
٢٠ – التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ أبو إبراهيم الصنعاني . ت: د/ محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم. مكتبة دار السلام، الرياض . ط الأولى، ١٤٣٢ هـ – ٢٠١١ م.
٢١ – التيسير بشرح الجامع الصغير . العلامة المناوي . مكتبة الإمام الشافعي – الرياض ط . الثالثة ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م .
٢٢ – جامع بيان العلم وفضله . أبوعمر يوسف القرطبي . دار ابن الجوزي المملكة العربية السعودية ط الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤م .
٢٣ – الجنى الداني في حروف المعاني المرادي ت . د/ فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل . دار الكتب العلمية . بيروت – لبنان . ط الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .
٢٤ – حاشية السندي على سنن ابن ماجه. دار الجيل – بيروت، الطبعة – الثانية. بدون.

٢٥ – حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي . شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري. دار صادر – بيروت . بدون .

٢٦. حاشية العلامة الصبان" على شرح الشيخ الأشموني: على ألفية الإمام ابن مالك. دار الكتب العلمية بيروت. لبنان . ط الأولى ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢٧ – حُجِّيَّة السنة. الشيخ / عبدالغني عبدالخالق. وما بعدها. دار الوفاء. بدون

٢٨ – الحدود في الإسلام ومقارنتها بالقوانين الوضعية د / محمد محمد أبوشهبة . الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية . القاهرة ط ١٣٩٤هـ/١٩٧٤ م .

٢٩ – الحكمة والمثل والتمثيل نظرات في أصولها وخصائصها الفنية د / عبد العظيم المطعني مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود . العدد الحادي والعشرون ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥م .

٣٠ – خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية د / عبدالعظيم المطعني . مكتبة وهبة . ط أولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م

٣١ – دراسات في علوم القرآن . د/فهد الرومي. مكتبة الملك فهد الوطنية . ط الرابعة عشرة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م

٣٢ – دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين . د/ محمد محمد أبو شُهبة . مكتبة السنة ط الأولى، ١٩٨٩ م .

٣٣ – دلائل الإعجاز . الإمام عبدالقاهر الجرجاني . ت . الشيخ / محمود شاكر . مطبعة المدني ط الثالثة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

٣٤ – دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين دراسة منهجية تحليلية. د/ محمود توفيق سعد . مكتبة وهبة ط أولى ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩ م .

٣٥ – دلالات التراكيب د/ محمد أبوموسى . مكتبة وهبة ط الثانية . ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٣٦ – دلائل النبوة . البيهقي. دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى – ١٤٠٥ هـ .
٣٧ – ذم الموسوسين. ابن قدامة. مطبعة الفاروق الحديثة. مصر. بدون .
٣٨ – الرسالة . الإمام الشافعي. ت الشيخ / أحمد شاكر . مكتبة الحلبي . مصر ط أولى ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م.
٣٩ – رسالة المباحث المرضية . لابن هشام المصري . ت.د / مازن مبارك . دار ابن كثير . ط أولى ١٩٨٧م .
٤٠ – زاد المعاد في هدي خير العباد . الإمام ابن القيم . مؤسسة الرسالة، بيروت – مكتبة المنار
٤١ – سبل الاستنباط من الكتاب والسنة . د / محمود توفيق سعد . مطبعة الأمانة، القاهرة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
٤٢ – سنن أبي داود. ت . الشيخ / شعَيب الأرنؤوط وآخرون . دار الرسالة العالمية الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م .
٤٣ – سنن ابن ماجة . ت . الشيخ / شعيب الأرنؤوط و آخرون . دار الرسالة العالمية . ط الأولى١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م
٤٤ – سنن الترمذي . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون .
٤٥ – سنن الدارمي . ت . أ /حسين سليم أسد الداراني . دار المغني للنشر والتوزيع. المملكة العربية السعودية . ط الأولى، ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م
٤٦ – السنن الكبرى. أبو بكر البيهقي . ت . أ/ محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت – لبنات ط الثالثة ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م .
٤٧ – السنة . أبو بكر يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي . ت: د/ عطية الزهراني . دار الراية . الرياض ط الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.
٤٨ – السنة . المروزي . ت. د/ عبدالله بن محمد البصيري . دار العاصمة . الرياض . أولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠١ م .

٤٩ – السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقران الكريم. أ /: شيخة بنت مفرج المفرج. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة . بدون.

٥٠ – السنة ومكانتها في التشريع الإسلام . د/ مصطفى السباعي . نشر المكتب الإسلامي . دمشق . ط الثالثة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

٥١ – الشَّافِي فيْ شَرْح مُسْنَد الشَّافِعي . ابْنِ الأثِيرْ . ت . د/ أحمَدْ بْن سُليمان . مَكتَبةَ الرُّشْدِ. بدون.

٥٢– الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية عرض وتفنيد ونقض د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني . مكتبة وهبة . ط الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م .

٥٣ – شرح أحاديث من صحيح البخاري . د / محمد أبوموسى . مكتبة وهبة . ط أولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠ م

٥٤ – شرح أحاديث من صحيح مسلم . د/ محمد أبوموسى مكتبة وهبة . ط أولى ٢٠١٤م

٥٥ – شرح الأشموني على ألفية ابن مالك . دار الكتب العلمية . بيروت. لبنان . ط الأولى ١٤١٩هـ– ١٩٩٨م .

٥٦ – شرح الرضي على الكافية . ابن الحاجب . ت. د/ يوسف حسن عمر . جامعة قار يونس – ليبيا ط ١٣٩٥ هـ– ١٩٧٥ م .

٥٧ – شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك. مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة ط الأولى ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م.

٥٨ – شرح سنن أبي داود. الشيخ / عبد المحسن العباد . (موقع الشبكة الإسلامية) .

٥٩ – شرح صحيح البخاري . ابن بطال . مكتبة الرشد . الرياض . ط الثانية، ١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م .

٦٠ – شرح الطيبي على مشكاة المصابيح . ت .د / عبد الحميد هنداوي . مكتبة نزار مصطفى الباز. مكة المكرمة . ط الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م

٦١ – شرح مصابيح السنة . الإمام البغوي . ت . الشيخ / محمَّدُ ابن المَلَك . إدارة الثقافة الإسلامية الرياض ط الأولى، ١٤٣٣ هـ – .٢٠١٢

٦٢ – شرح المفصل . ابن يعيش. .ت . د/ إميل بديع يعقوب . دا ر الكتب العلمية . بيروت – لبنان .

٦٣ – شرح النووي على صحيح مسلم . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط الثانية، ١٣٩٢هـ .

٦٤ – شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل . ابن القيم . دار المعرفة. بيروت. لبنان ط ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨م .

٦٥ – الصبغ البديعي . د / أحمد موسى . دار الكتاب العربي . بيروت . طبعة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

٦٦ – صحيح البخاري . ت . الشيخ / محمد زهير بن ناصر الناصر دار طوق النجاة . ط . الأولى. ١٤٢٢هـ .

٦٧ – صحيح ابن حبان . مؤسسة الرسالة . بدون .

٦٨ – صيد الخاطر . أبو الفرج ابن الجوزى . ت . د/ السيد محمد السيد و أ / سيد إبراهيم . دار الحديث القاهرة ط الثانية ١٤١٩هـ ١٩٩٩م .

٦٩ – ضياء السالك إلى أوضح المسالك . د/ محمد عبد العزيز النجار. مؤسسة الرسالة . ط الأولى ١٤٢٢ هـ .

٧٠ – الطراز . يحيى بن حمزة العلوي . المكتبة العصرية . بيروت ط الأولى، ١٤٢٣ هـ .

٧١ – طرق حديث من كذب علي متعمدا، أبو القاسم الطبراني . ت . أ/ علي حسن علي عبد الحميد وآخرون. المكتب الإسلامي ، دار عمار . الأردن . ط الأولى، ١٤١٠هـ .

٧٢ – العقد المنظوم في الخصوص والعموم . شهاب الدين القرافي . ت . د/أحمد الختم عبد الله . المكتبة المكية – دار الكتبي . مكة المكرمة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

٧٣ – عمدة القاري شرح صحيح البخاري . بدرالدين العيني . دار إحياء التراث العربي . بيروت.

٧٤ – فتح الباري شرح صحيح البخاري . ابن حجر العسقلاني . دار المعرفة . بيروت. ١٣٧٩هـ .

٧٥ – فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام . الشيخ / محمد بن صالح العثيمين . المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع . الرياض ط الأولى، ١٤٢٧ هـ- ٢٠٠٦ م

٧٦ – فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين . للنووي وابن رجب رحمهما الله د/ عبد المحسن بن حمد العباد البدر . دار ابن القيم، الدمام المملكة العربية السعودية.ط الأولى ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

٧٧ – فتح المنعم شرح صحيح مسلم . د / موسى شاهين لاشين . دار الشروق . ط الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٢ م

٧٨ – فقه بيان النبوة: منهجا وحركة . أ.د/ محمود توفيق سعد.مطبعة الأمانة ط الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣

٧٩ – الكتاب . سيبويه . ت . أ / عبدالسلام هارون . مكتبة الخانجي . القاهرة .ط الثالثة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨م.

٨٠ – الكشاف . الإمام الزمخشري. دار الكتاب العربي – بيروت . ط الثالثة – ١٤٠٧ هـ .

٨١– الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري . الكرماني . دار إحياء التراث العربي . بيروت–لبنان ط. أولى: ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م .

٨٢ – الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج . الشيخ /محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي . دار المنهاج – مكة المكرمة ط الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩

٨٣ – لسان العرب.دارصادر . بيروت.

٨٤ – المتواري علي تراجم أبواب البخاري . ابن المنير الإسكندراني . ت .أ/ صلاح الدين مقبول أحمد . مكتبة المعلا – الكويت . بدون .

٨٥ – محبة الرسول بين الاتباع والابتداع د/ عبد الرءوف محمد عثمان . إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد. – الريا ض ط . الأولى، ١٤١٤هـ .

٨٦ – المختار من كنوز السنة د / محمد عبدالله دراز . دار الأنصار . ط الثالثة . ١٣٩٨ هـ .

٨٧ – مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح . حسام الدين الرحماني المباركفوري ،إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الهند ط الثالثة – ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤ .

٨٨ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح . الملا علي القاري . ط دار الفكر. بيروت . لبنان ط الأولى. ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م .

٨٩ – مساوئ الأخلاق للخرائطي . ت . الشيخ / مصطفى بن أبو النصر الشلبي .مكتبة السوادي للتوزيع، جدة ط: الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

٩٠– المستدرك على الصحيحين. أبو عبد الله الحاكم . ت . أ/ مصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية – بيروت ط الأولى، ١٤١١هـ– ١٩٩٠م.

٩١ – مسند الإمام أحمد بن حنبل . ت . الشيخ / شعيب الأرنؤوط وآخرون. مؤسسة الرسالة . ط الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

٩٢ – مسند البزار ت. الشيخ /محفوظ الرحمن زين الله وآخرون . مكتبة العلوم والحكم . المدينة المنورة ط . الأولى ١٩٨٨م.

٩٣ – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. أبو العباس الفيومي.المكتبة العلمية . بيروت .

٩٤ – المطول .سعد الدين التفتازاني. دار الكتب العلمية – بيروت ط الثالثة – ١٤٣٤هـ./ ٢٠١٣م.

٩٥ – معالم السنن . الخطابي . المطبعة العلمية – حلب ط الأولى ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢م .

٩٦– معاني الحروف . الرماني ت. أ/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي دار الشروق – جدة . ط الثانية –١٩٨١. م

٩٧– معاني النحو د/ فاضل السامرائي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن . ط . ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م

٩٨– معترك الاقران في إعجاز القرآن . الإمام السيوطي . دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ط الأولى: ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٩٩ – معجم اللغة العربية المعاصرة . د/ أحمد مختار عمر . عالم الكتب ط الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

١٠٠ – مفاتيح الغيب. الرازي . دار إحياء التراث العربي – بيروت ط: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

١٠١ – مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة . الإمام السيوطي . الجامعة الإسلامية . المدينة المنورة . ط الثالثة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .

١٠٢ – مفتاح دار السعادة . ابن قيم الجوزية . دار عالم الفوائد. مكة المكرمة ط. الأولى ١٤٣٢ هـ.

١٠٣ – المفردات في غريب القرآن . الراغب الأصفهاني . ت . أ/ صفوان عدنان . دار القلم . دمشق . ط أولى ١٤١٢ هـ .

١٠٤ – مقاييس اللغة . ابن فارس . ت . أ / عبدالسلام هارون . دارالفكر . ط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م .

١٠٥ – مكارم الأخلاق للطبراني . دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ط الأولى، ١٤٠٩ هـ

١٠٦ – من أسرار البيان النبوي . د / أحمد محمد على . ص ٧٧ . دار الصحوة . القاهرة . ط أولى . ١٤٠٦ هـ

١٠٧ – من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب . د/ محمد أبوموسى .مكتبة وهبة . ط الثانية ١٤١٦هـ .

١٠٨ – من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء" و"ثم" د/محمد الأمين الخضري . مكتبة وهبة . ط أولى . ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩م .

١٠٩ – موسوعة الألباني للحديث على شبكة المعلومات الدولية (النت)

١١٠ – النبأ العظيم . د/ محمد عبدالله دراز دار الثقافة للنشر والتوزيع ط١٤٠٥هـ/١٩٨٥ م

١١١ – النحو الوافي أ / عباس حسن. دار المعارف . الطبعة الخامسة عشرة.

١١٢ – النهاية في غريب الحديث والأثر . مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير . ت. د/ طاهر أحمد الزاوى – د/ محمود محمد الطناحي . المكتبة العلمية – بيروت، ط ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م .

المجلات:

١– مجلة المقتطف . عدد يونيو ١٩٤٠م .

٢ – مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية . العدد الأول ٢٠٠٦.

فهرست الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	٤٥٤٨
التمهيد:	٤٥٥٢
ما السنة ؟	٤٥٥٢
ما معنى حُجِّيَّة السنة ؟	٤٥٥٥
المبحث الأول : السنة وحي من الله – تعالى – .	٤٥٥٨
تمهيد :	٤٥٥٨
الحديث الأول : (ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه)	٤٥٦٠
الحديث الثاني: (والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله)	٤٥٩١
المبحث الثاني : وجوب التمسك بسنة النبي – ﷺ – والأمر بطاعته – ﷺ – .	٤٦١٠
تمهيد :	٤٦١٠
الحديث الأول: (يأيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به)	٤٦١٤
الحديث الثاني : (أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة)	٤٦٢٨
الحديث الثالث : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى)	٤٦٤٥
المبحث الثالث : شرف تبليغ الحديث وحرمة الكذب على رسول الله – ﷺ – .	٤٦٥٢
الحديث الأول : (نضر الله امرءا سمع مني شيئا)	٤٦٥٤
الحديث الثاني : (إن كذبا علي ليس ككذب على أحد)	٤٦٦١
الخاتمة.	٤٦٦٨
المصادر والمراجع.	٤٦٧١
فهرست الموضوعات	٤٦٨١